الواسطة في معرفة أحوال مالطة

أحمد فارس الشدياق



الواسطة في معرفة أحوال مالطة

الواسطة في معرفة أحوال مالطة

تأليف
أحمد فارس الشدياق



الواسطة في معرفة أحوال مالطة

أحمد فارس الشدياق

رقم إيداع ٣٦٥٠ / ٢٠١٤
تدمك: ٨ ٦٦٢ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: محمد الطوبجي.

المحتويات

الواسطة في معرفة أحوال مالطة المشهورة

لصاحب الجوائب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحصى كل شيء كتابًا، وأعد للمتقين جزاءً حسابًا، وألهم ابن آدم أن يضرب في الأرض ويكدح لنفسه كدحًا، ويجوب مناكب البلاد ويسعى ليدرك نجحًا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي بهرت آيات نبوته الناظرين، وبزغت شمس دينه فأفل منها سها الكافرين، ونادى بالحق فزهق الباطل وأمحى طلله، وأنذر فأرهب وبشر فأرغب وطاب مقاله ومقوله ومقوله، خير من دعا وأمر، ونهى وزجر، ووعد فأنجز، وقال أطنب أو أوجز، وأرشد فهدى، وأجدى من اجتدى، صلاة وسلامًا دائمين، متلازمين متلائمين، وعلى آله وعترته، وأصحابه وعشيرته، ما سرى الساري، وطلعت الدراري.

«أما بعد» فإن الأسفار طالما ذكرها الذاكرون، وبالغ في وصفها الواصفون، فمدحها من علت مروءته، وسمت همته، وذمها من قصر عنها، ولم يجن منها، فمنهم من شبه صاحبها بدر إن لم ينقل لم يكن في التيجان منضودًا، وبهلال إن لم يسر لم يصر بدرًا مشهودًا، ومنهم من زعم أنها الحاملة على الذل، المضيعة لحسب المرء والموقعة له في الضل، والخمول وعدم الشكل، وإن الشيء إنما يرزن إذا كان في مستقره، حتى عرَّفوا الظلم أنه وضع الشيء في غير مقره، ومعلوم أن محل العرب مباين لمحل العجم، فكأن أحد الفريقين إذا جاوز محله فقد ظلم، إلى غير ذلك من تناقض العبارات والاعتبارات، كما جرت بذلك عادة البلغاء في المحاورات؛ إذ كل حكم وقضية من القضايا الجارية أطالوا فيها المقال،

وجالوا فيها من حيث لا مجال، كاعتزال الناس والانفراد عنهم، والمخالطة لهم والأخذ منهم، فبعضهم آثر الأول، وود لو يقضي عمره على قنة جبل، وبعضهم شبه الزحام، بمنهل عذب لذي الأوام، وأمثال ذلك لا تحصى، ولا تعد ولا تستقصى، فكان الركون إلى ما قالوا، والمعول على ما فيه جالوا وأطالوا، غير هادٍ وحده سبيلًا قويمًا، ولا شافٍ كليمًا، إلا إذا امتحن الناقد اللبيب بنفسه أي الفريقين أصدق قيلًا، وأهدى سبيلًا، وأطلع على ماذا حملهم على الذم والقدح، والثناء والمدح، وماز المعلم من المجهل، والحالي من المعطل، فهو حينئذ خبير وأي خبير، غير مفتقر إلى ناصح منهم ومشير، والحاصل أن لكل امرئ شانًا يعنيه، ومطلبًا هو مقتفيه، وأن ما قضى الله يكون، سواء أذم الذامون أم مدح المادحون، هذا وقد كنت في عنفوان شبابي، وجدة جلبابي، وأزهار سني، وازدهار ذهني، لهجًا بالسفر والاغتراب، والترحل عن الوطن والأصحاب، إلى بلد ينضر فيه غرسي، وتطيب فيه نفسي، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبسًا، وألقى إذ الدهر لي موحش خليلًا يصادقني مونسًا، حتى أدتني أعمال حابطة، إلى جزيرة مالطة، فألفيتها لا كما أملت، وكابدت منها ما لا يفي بما عنه ترحلت، فعن لي أن أظهر ما بطن منها، وأكشف مخبأها لمن رغب فيها أو عنها، فألفت فيها كتابًا سميته «الواسطة في معرفة أحوال مالطة».

فصل في تخطيط مالطة معربًا

اعلم أن تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة و٤٤ دقيقة من الطول، وفي ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض، أما موقعها في الكرة فإن بعض الجغرافيين ألحقوه بأفريقية بالنظر إلى المكان، وبعضهم ألحقه بجزائر إيطاليا بالنظر إلى عادات أهل مالطة وأحوالهم وديانتهم، والمراد بذلك أنها من أوروبا، فممن ألحقها بأفريقية بثولومي، وممن ألحقها بأوروبا بلينوس وسطرابوس، ودليلهما على ذلك كونها على بُعد ستين ميلًا من رأس باسرو، وعلى مائتين من كلبيه نومينا أركولي، والمحل الأول أقرب إلى أوروبا، والثاني أقرب إلى أفريقية. قال: فأما عرضها فاثنا عشر ميلًا، وطولها عشرون، ودروتها ستون، وقاعدتها الآن هي المدينة المسماة فالتة.

فأما في الأعصر السالفة فكانت نوتابيلي، ويقال لها الآن المدينة، وموقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها، وكأن الجزيرة منقسمة بها إلى شطرين: أحدهما يمتد جهة الشرق والآخر جهة الغرب، والذي بنى فالتة كان أحد أمراء الإفرنج، وسماها باسمه، وذلك سنة ١٥٧٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس. قلت: زعم بعض المالطيين أن أصل هذه الكلمة شبر الرأس وبعضهم أنها جبل رأس، وعندي أنها شعب الرأس. قال في الصحاح: «شعب الرأس شأنه الذي يضم قبائله.» ا.هـ. وهو كناية عن أصل الشيء ومجتمعه كما أن قبائل الرأس مرجعها إلى الشعب، ويحتمل أنها سميت بشيب الرأس؛ لأن أهل مالطة إذ ذاك كانوا يناصبون المسلمين الحرب والثأر، وكل فريق ملاقٍ من فريقه ما يشيب الرأس، وذكر بوليه المؤلف الفرنساوي أن قاعدة هذه الجزيرة سميت باسم الأمير لافاليت رئيس طريقة الفرسان ولد في سنة ١٤٩٤ ومات في سنة ١٥٦٨ وكان شهيرًا بالبأس والإقدام، وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج صانت ألمو ثم قوى عليهم، وأخرجهم منها. قال المؤلف: ثم خلفه باولودل مونتي

فأتم بناءها في الثامن عشر من أيار، وذلك في سنة ١٥٧١ وقبل بنائها كان مقام الزعماء المنتسبين إلى طريقة مار يوحنا في برملة والبرغو بشرقي فالتة، ويقال للثانية فيتور يوزا أي المنصورة لحرب انتصر فيها أهل مالطة على المسلمين، وذلك في سنة ١٥٥٦، قال: وفي ضواحي هذه المدينة قرية اسمها الفلوريانة، وهي أعمر جميع قرى الجزيرة، وجملتها أربع وعشرون قرية، وهي جديرة بأن تسمى أمصارًا؛ لكثرة سكانها وحسن بنائها وكنائسها، وعدد أهل الجزيرة كلهم نحو ١٢٠٠٠٠ نفس، ولفالتة مرسيان؛ أحدهما: كبير يعد من أعظم المراسي، وذلك لسعته بحيث يسع عدة بوارج مع الأمن، ولكونه في وسط بحر الروم فمن ثم كانت الجزيرة بهذا الاعتبار أعظم محل للتجارة على أن تلك المخازن العديدة والشئون الرحيبة المبنية عند هذا المرسى تغري الظاعن والمقيم بتعاطي التجارة فيها، والثاني: صغير، وهو مرسى المراكب التي ترد من البلاد المشوبة بالوباء، ويقال له مرسا مشطو محرفة عن مرسى الشط. أما هواء الجزيرة فالغالب عليه الاعتدال غير أن أرضها صخرة لا تصلح من أصلها للحرث، ومع ذلك فإن السنبلة الواحدة تخرج في تربتها التي ليست بالطيبة ولا الرديئة ست عشرة سنبلة أو عشرين، وفي عام الخصب ثماني وثلاثين، وفي الجيدة إحدى وستين، وأخص أصناف غلالها التي يتجر بها القطن، وقد يبعث منه إلى جهات مختلفة في أوروبا مقدار جزيل، إلا أن بخس ثمنه رغب الأهلين عنه إلى غيره فصاروا يصرفون همتهم في تربية التوت، فإن فيه نفعًا كبيرًا، وقد عُلم بالتجربة أنه يتحصل منه حرير أعلى من حرير إيطاليا. قلت: وقد علم بالتجربة أيضًا أن دود القز لا يعيش في هذه الجزيرة، والمؤلف إنما كتب هذا عند الشروع في تربية التوت. قال: وفي هذه الجزيرة تنمو الأشجار المثمرة لأصناف الفاكهة الطيبة كالرمان، والتفاح، والعنب، والأجاص، وأعظمها الأترج.

فأما عدد الأهلين الآن بالنظر إلى صغر الجزيرة فإنه عظيم جدًّا، ولم يعهد من قبل قط أنها كانت تحوي هذا المقدار، وإنما يعلم أنها كانت مأهولة بأسرها إلا أن بعض جهات منها خلت عن السكان كما يستدل على ذلك من الآثار الباقية، وما وصل إلينا من أسماء بعض قرى لا وجود لها، وسبب ذلك فيما قيل أن المالطيين حين كانوا تحت سلطة الأرجونيين وجدوا أنفسهم عرضة لغزو المسلمين المتتابع، ولهجوم لصوص أفريقية، فجعلوا مقرهم شرقي المدينة صيانة لعرضهم ومالهم وأخلوا الجهة الغربية، وذكر بعض الجغرافيين أن مالطة كانت تسمى في القديم هيبرية، وقال بعض إنه لم يوجد في بلاد أوروبا جزيرة عرفت بهذا الاسم، وإنما هو اسم مدينة قديمة في صقلية،

ثم عرفت أخيرًا باسم كامرينة، ولما استوطن الفينيقيون هذه الجزيرة سموها أوجاجية، وسماها اليونانيون مليتة، واشتهر ذلك في سنة ٨٢٢ قبل الميلاد، وسماها المسلمون مالطة، ومعنى ميليسة أو ميليتة في لغة اليونان النحل، وزعم قوم أنها سميت باسم ميليتة ابنة دوريس على جهة التعظيم، وهو مشتق من ميلت في السريانية، وهو اسم إله، ويعرف في غيرها بجونو، ولا يبعد أن يكون ذلك أيضًا في اللغة الفينيقية.

قال: وروى بعض المؤرخين أن بناء مدينة فوتاييلي كان بعد الطوفان بنحو ١٤٠٠ سنة، وأعظم ما فيه عبرة من مبانيها قبل تاريخ النصارى هياكل جونو، وأبروسربين، وهركوليس، وأبولو. فموقع الأول هو بين فيتوريوزة وصانت أنجلو. ويحكى أن ملك نوميدية الذي كان دأبه غزو مالطة كان قد أخذ منه قطعة بديعة من العاج وأهداها إلى أستاذه ففرح بها أولًا غاية الفرح، ولكن لما علم أنها أخذت من الهيكل ردها إلى الملك، والتمس منه أن يعيدها في محلها، وموقع هيكل أبروسربين في قلعة تسمى مطرفة وقد وجد فيه آثار، وموقع هيكل هركوليس في جهة الجزيرة الجنوبية بالقرب من مرسى سيروكو «أي مرسى الشرق» وهو من بناء الفينيقيين وقد وُجد فيه آثار كثيرة، وموقع هيكل أبولو عند نوتابيلي وهو بناء الإغريقيين، وكان ذا رونق عظيم، ويقال إن جملة ما أنفق في بنائه بلغ سبعمائة وتسعين سترسيا، وقد علم ذلك من وجود صنم نصبه له مجلس عام، ووجد أيضًا آثار حمام في محل اسمه قرطين، وممن ذكر حكومة مالطة من الشعراء الأقدمين أوميروس، وأوقيديوس، ويفهم من كلام الأول أن القبيلة التي يقال لها الفياكنس هم أول من استوطنوا هذه الجزيرة، وكانوا ذوي قوة وبأس، ثم خلفهم الفينيقيون وهم من جهات صور وصيدا، وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد، وكانوا أهل سعي وكسب وتجارة، فلبثوا فيها نحو أربعمائة وخمسين سنة حتى تغلب عليهم الإغريقيون، ثم سلموها للقرطاجنيين وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد، ثم جاء من بعدهم الرومانيون في سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور، فأقروا فيها أحكامهم وسننهم، وأعظم ما حدث في دولة الرومانيين مما لا ينبغي أن يهمل ذكره قدوم ماربولس، وانكسار السفينة به وبمن كان معه وذلك سنة ٥٨ للميلاد في عهد القيصر طيباريوس في موضع يقال له الآن خليج ماربولس، ومنذ ذلك الوقت تنصر أهل الجزيرة، ثم بعد انقراض دولة الرومانيين منها استولت عليها قبيلة الفندلس ثم القوث، ثم تغلب على هؤلاء البليساريون وطردوهم منها، وألحقوها بحكومة البلاد الشرقية، وبقيت كذلك إلى سنة ٧٨٠ فأخذوا في هضم الرعية، فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين.

قلت: ذُكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان أن مالطة فُتحت في أيام أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب، توفي سنة إحدى وستين ومائتين، وإنما لقب بالغرانيق؛ لأنه كان مشغوفًا بالصيد، روي أنه بنى قصرًا في السهلين لصيد الغرانيق، أنفق فيه ثلاثين ألف دينار، فكني بهذه الكنية وكان في غاية الجود إلا أنه غلب عليه اللهو والطرب والأكل والشرب، ولم يزل مقيمًا على لذاته طول عمره، انتهى. فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف «وسلموا الجزيرة للمسلمين.» قال: ثم قام الأمير روجر النورماني بعدها بمائتي سنة واسترد الجزيرة، وألحقها بصقلية، فبقيت كذلك نحو سبعين سنة، ولما تزوج القيصر هنري السادس قيصر جرمانية ولية عهد صقلية؛ دخلت مالطة في حكومته وذلك سنة ١٢٦٦، وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة، وفي أثناء ذلك ولي أخو لويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معًا، وبعد سنتين تغلب عليه الأمير بطرس الأراجوني، ثم آل أمرها إلى الملك كرلوس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام مار يوحنا برضى الأهلين واتفاق دول أوروبا، وكان قد جرى هذا النظام عندهم أولًا، ثم لما نبغ نابوليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على أن يرخص للأهلين في التصرف بحقوقهم، إلا أن الفرنسيس لم يلبثوا أن هتكوا بعض السنن القديمة، وانتهكوا حرمة الكنائس فتحزب عليهم المالطيون تحزبًا لم يخلُ عن سفك دم كثير منهم وعن تلف أموالهم إلى أن أتت الإنكليز فسلموها لهم وكان ذلك في سنة ١٨٠٠.

قلت: لما دخلها نابوليون وجد فيها ألفًا ومائتي مدفع، ومائتي ألف رطل من البارود، وأربعين ألف بندقية، وعدة بوارج و٤٥٠٠ أسير من المسلمين، فأطلقهم وذلك في سنة ١٧٩٨. قال: فأما أخْذ المسلمين لها فإنه كان من باب المصادقة أولى منه من المغالبة، وعاملوا الأهلين أولًا بالرفق والمياسرة، ووقروا سننهم وأحكامهم، وامتزجوا بهم للغاية حتى كأن الجيلين واحدًا كما يتبين ذلك من بقاء لغتهم فيهم.

قال: أما لغة مالطة فذهب بعضهم إلى أنها عربية فاسدة، وذهب آخرون إلى أنها فينيقية؛ لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين؛ بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم، وما برحت مستعملة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها، وأنها لم تتغير في مدة القرطاجنيين؛ لأن لغة هؤلاء أيضًا كانت فينيقية، ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق بأخلاقهم والسلوك بسننهم أينما ملكوا، فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم، والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سموا المالطيين بربرًا، ولم يكن يطلق هذا الاسم إلا على من جهل اللاتينية واليونانية. قال ثم

بقيت في دولة المسلمين أيضًا ولم تتغير، وإنما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية، ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض ألفاظ منها للغتنا نحو بير وصيد فإنهما في الفينيقية بر وصد، وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد في كلتا اللغتين، والحاصل أن مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية، وإن كانت قريبة من هذه أيضًا. قلت دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت، فإن البير والصيد ينطق بهما في لغتهم كما في لغتنا سواء ما عدا موافقتهما في تصريف الأفعال والأسماء، وفي الضمائر، وغير ذلك من أساليب الكلام كما سيأتي بيان ذلك.

ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف الفينيقية ولا العربية ولا المالطية وإن كانت لغته، ويتعرض للحكم والاستدلال، فكيف يحكم على الشيء وهو يجهله، وكيف يقول أولًا إن لغة المسلمين بقيت في أهل مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين، ثم يقول الآن إنها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها، وإنما حمله على هذا بغضته وبغضة أهل بلاده للعرب، وتبرئة أنفسهم أنهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين؛ إذ كان هؤلاء كما ذكر أرباب جد وتجارة، والعرب عند أهل مالطة كناية عن الهمج؛ وذلك لجهلهم التواريخ، ولأنهم لا يرون الآن إلا صعاليك المغاربة، والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل العلم والتمدن كالذين كانوا في صقلية وغيرها، فإني لم أجد فيما قرأت قط من كتب الأدب والتواريخ: قال المالطي، والسيوطي — رحمه الله — لم يغادر في كتاب الأنساب الذي سماه لب اللباب أحدًا من أهل العلم إلا وذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة. قال: أما جزيرة غودش وتسمى بالإفرنجية كوتزو، فزعم بعض أن هذه اللفظة يونانية، ومعناها مركب مستدير، وهي كأنها ذيل انقطع من مالطة، وطولها اثنا عشر ميلًا في عرض ستة، وأهلها نحو خمسة عشر ألفًا، وجملة قُراها ست، ومدينتها تسمى الربط «كأنه محرف عن الربض»، وفيها آثار قلعة قديمة، وبقول الجزيرة وفاكهتها طيبة جدًّا، وكذا عسلها حتى إن الأقدمين كانوا يفضلونه على عسل جبل هيلا، ويرد منها إلى مالطة قوارب كثيرة مشحونة بالفاكهة، والبقل، والسمك، وحكومتها ملحقة بمالطة، وكذا كانت في الزمن القديم، وزعم بعض أن مالطة وغودش وكمونة كانت في الأصل جزيرة واحدة، وحدث لها من الزلازل ما فرقها (انتهى المنقول من كتاب مختصر ألفه مكلف في تاريخ مالطة).

وأقول: قد رأيت جزيرة غودش غير مرة، أما اسمها فأظنه محرفًا عن لفظة الهودج، سماها به المسلمون لشدة شبهها به، كما سموا الجزيرتين الأخريين كمونة وفلفلة لصغرهما، إلا أن أهلها ينطقون بها بالغين المعجمة لا بالمهملة كما ينطق به أهل

مالطة، ولا أعلم في لغتهم كلمة غيرها قلبت فيها الهاء غينًا، فأما قلب الجيم شينًا فكثير، أما أرضها فأحسن من أرض مالطة، ولا سيما كون حقولها مكشوفة للنظر كحقول فرنسا وإنكلترة لا كحقول أهل مالطة كما يأتي، وهي أزكى ثمرًا ونباتًا، وأهلها أخلص طوية، وفيها الحمير والبغال ضليعة لكنها غير فارهة، وربما بيع الحمار منها بأربعين ليرة، أما شجرها فإن التفاح لا يكاد يكون أكبر من العليق في الشام، وشجر التين منبسط على الأرض، وليس فيها من شجر الجوز سوى شجرة واحدة، وفيها أيضًا نخلة لكنها لا تثمر، وأسماء قراها ومواضعها كلها عربية محضة، ومما أضحكني من خرق أهلها أنهم يدرسون القمح على البهائم من دون نورج، وذلك بأن يربطوا مثلًا كل زوج منها في قرن، ويمشوهما على السنابل، فيثور هذا ناحية وذاك أخرى، وكذا هي في مالطة، ومن غرابة أرض غودش أن جميع محالها مزروعة محروثة إلا ما قابل مالطة، فكأنه من قبيل مراعاة النظير، أما كمونة فليس فيها سوى بيت واحد وكنيسة، وأرضها قليلة الجدوى.

فصل في هواء مالطة ومنازهها وغير ذلك

إنما قدمت هذا الفصل من كلامي؛ لأهميته، فإن العافية خير ما ملك الإنسان، وأن أرضًا لتأكل من نازلها لجديرة بأن لا يؤكل منها. فأقول: قد تقدم فيما مر بك موقع هذه الجزيرة، وبقى الآن الكلام على هوائها من حيث هو هو فإن الهواء لا يعرف غالبًا من مجرد نسبة الموقع، أما اشتقاق اسمها إن كان عربيًّا فمن م ل ط، ومعظمه يدل على التجرد والخلو، أو التجريد والإخلاء، فتكون قد سميت بذلك؛ لخلوها عن الغياض، والجبال، والأنهار، وغيرها، وفي القاموس: ومالطة كصاحبة «أي بلد»، وكان عليه أن يذكر خصوص كونها جزيرة، فإنه كثيرًا ما يتعقب الصحاح بمثل ذلك، فأما قوله أولًا ملط شعره حلقه، ثم قوله بعد فاصل: والأملط من لا شعر على جسده، وقوله في أول المادة: الملط الخبيث لا يُرفع له شيء إلا سرقه، ثم قوله عند الآخر: وامتلطه اختلسه فمن اختلاط الترتيب في التركيب.

وممن ذكر مالطة أيضًا المطران جرمانوس فرحات في كتابه المسمى «باب الإعراب عن لغة الأعراب» قال: «ومالطة جزيرة عاصية متقاصية قرب صقلية سكانها لصوص البحر.» قلت: لعل تأليفه هذا الكتاب كان قبل سفره إلى رومية وإلا لما قال متقاصية، أو أنه جاء بها للمجانسة، أما قوله: سكانها لصوص البحر فينبيء بما كان لأهلها حينئذ من الشهرة الذميمة عند أهل المشرق، وكأن هذه الصفة كانت غالبة عليهم حتى أنسته أن يقول لغتهم العربية ودينهم النصرانية، فأما الصحاح فذكر ملطية في بلاد أرمينية، والآن تعد من الممالك العثمانية.

أما هواء مالطة فلا يحمده من ألف البرور الواسعة؛ لأنه كثير التقلب، فيختلف في الليل والنهار عدة مرار، فقد يكون في الصباح صحو فلا تشعر إلا والغيم قد طبق أعنان السماء، فيكفهر الجو، ويهيج البحر، وتثور الزوابع، وتزمر الرياح فترقص لها الأبواب؛

بل قد يكون في النهار برد وفي الليل حر هذا في الشتاء، فأما في الصيف فلا ترى في الجو لطخة سحاب ولا غادية أصلًا، وفصل الشتاء يبتدئ فيها من شهر تشرين الأول، وينتهي إلى أيار، والباقي صيف شديد، وإن وقع في خلال ذلك يوم معتدل فتأتي فيه نفحة من الريح باردة وأخرى حارة، أو تكون النعور وهي من الرياح ما فاجأك ببرد وأنت في حر أو عكسه، وفي الجملة فإنها جديرة بأن تسمى مخزن الرياح فهي لا تخلو منها باردة كانت أو حارة، وأكثر رياحها في الصيف السافياء تأتي بغبار وتراب دقيق تطيره على وجوه الناس، وتدخله في الديار من خصاص الزجاج. ومن الغريب أن الريح الشرقية التي تكون في الشتاء زمهريرًا تصير في الصيف سمومًا فتتشقق بها أخشاب المنازل، وهي مصبوغة وتصرصر بها روافد السقوف، ويجف بها الزجاج، ويتصلب فيكسر بأدنى مس، ويقرمد بها الجلد والورق، بل يتأثر بها الحديد، والنحاس، والعظم ونحوه، وينتن شمع الشحم فتكون الشمعة في البيت كالجيفة، وقد تبلغ درجات الحر فيها فوق المائة فيقضي الومد حينئذ باللباس الخفيف من الكتان، وبالنوم من دون غطاء، وأكثر أهل مالطة ينامون ليلًا على السطوح؛ لكون سطوح ديارهم غير مسنمة بخلاف الديار في أوروبا، وإذا مشى الإنسان خطوات في الصيف يعوم في عرقه، ثم لا يلبث أن تلفحه لفحة من الريح، فينبغي أن يكون أحذر من غراب هذا.

ولما كانت أرض الجزيرة خالية عن الأجم والغياض والجبال والأنهار؛ إذ هي عبارة عن صحن في وسط البحر، فمتى أصابتها الشمس مسحتها مسحًا على السواء فلا ملطا فيها من شيء، وربما زاد حرها أيضًا بسبب النار التي تخرج من جبل صقلية ومع قربها من إيطاليا فليس في ديارها رخام كديار تونس، وليس في شيء منها مياه جارية كديار الشام، ومن جملة الأسباب التي تجعل شتاءها عارمًا مكروهًا كون بنائها من حجر رطب لو جعل في مقمأة بضع سنين لا كلأ، وحين يستخرج أولًا من مقطعه يكون أخضر مائيًّا، ولا يبيض إلا إذا نصب للهواء والشمس سنين، ومن خواصه أنه قابل للنقش، فلهذا ترى منه في الديار والكنائس نصمات شتى، وقد يُبعث منه على سبيل التجارة إلى جميع البلاد، وكثيرًا ما تتوارى الشمس في فصل الشتاء، فلا تطل فيه ولا من شباك، فأين هذا من شتاء مصر حين يترحب بالشمس طالعة وتشيع غاربة، وفي الصيف يطفو نيلها فيرطب الأرض، وينتظم به شمل الأحباب، وعقود المسرات. وإذا اتفق في مالطة يوم صحو في الشتاء رأيت الناس جميعًا يعددون محاسنه ويصفونه ويلهون عن سوء أيامهم الأخر حين إذ الرياح تأخذ بناصية السائر، والمياه تهطل من أنف كل سحاب، والزكام ملازم للأنوف، والسعال

قابض على الحلقوم، وأشد ما يسوء منها استمرار الرياح أيامًا متوالية من دون مطر فإنه قد يأتي عليها من السنين ما لا يغزر فيه المطر والرياح مع ذلك لا تهدأ أصلًا، وقد احتاجوا في بعض السنين إلى الغيث غاية الاحتياج حتى فرض عليهم أسقفهم دعاء للاستمطار في الكنائس مع الصيام، والريح مع ذلك تزيد عصوفًا، فقلت:

ولما لم يطق كانون قطرا   تولى وهو يحبق بالرياح
فيا قوم اغسلوا بالدمع فيه   وجوهكم وصوموا عن سفاح

وفي الجملة فإن صيف مالطة وشتاءها شاقان جاهدان يهجمان بغتة، فآخر ذنب الشتاء معقود بناصية الصيف، فليست كمصر والشام فإن الإنسان فيهما يتعود على تخالف الفصول شيئًا فشيئًا، وليس من علامات الربيع شيء بمالطة سوى تكاثر البراغيث فهي آفة من الآفات، ولا من علامات الخريف سوى تناثر أوراق الشجر المعدودات، ومع ذلك فإن كثيرًا من الإنكليز يأتون إليها ليقضوا فيها الشتاء، أما عدم المطر فيها في الصيف فسببه قلة الشجر والغياض، فإن السحب إذا مرت فوقها لم تجد ما تجذب منه رطوبة، ولعل الأدوية والعقاقير التي تبقى مدة طويلة في مالطة تفسد بالكلية، ويزول ما بها من الخاصة فإن التبغ والنشوق والخمر إذا بقيت فيها زمانًا يزول طيبها رأسًا؛ لأن مبلط الديار وحيطانها وسقوفها من حجر ند كما مر، فإذا وضعت مثلًا مِلحًا في خزانة لا يلبث أن يندى كأنه خُلط بالماء، وكذلك تعفن المأكولات والمشروبات إذا وضعت في مخدع من خشب مصبوغ، فإن النداوة تسري إلى الصبغ، ولذلك كان البدل وهو داء المفاصل شائعًا في مالطة وقل من يسلم منه، وقد أصبت به أول سنة فكنت أقوم في الصباح موجع الأعضاء لا أنشط إلى شيء، وما زال ذلك يتزايد بي حتى لزمت الفراش، فلما عادني الطبيب ورأى مبلط المنزل أخبرني بالسبب، فعظم عليَّ ذلك، ثم لما سمعت بأن أكثر الناس ممنيون به هان عليَّ ما لاقيت، وتأسيت بهم، ودواء هذا الداء الإقامة في محل مواجه للشمس عند طلوعها، وقد كان يعلو كتبي من أثر النداوة عطن يلتصق به بعض الورق ببعض. ومن جعل مرقده قرب حائط فلا يأمن غائلة صداع أو وجع أسنان، ومن يكن ذا علة في صدره فأعظم خطر عليه التعرض للريح بعد أن يكون في محل دفء، مع أن الغالب على أهل مالطة الشدة والقوة غير أنهم ولدوا على هذه الحال فلا تؤثر فيهم رداءة المكان ولا الزمان، ومما توصي به الأطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلانله صيفًا وشتاءً، أما في الشتاء فللدفء، وأما في الصيف فلتنشيف العرق

ومنع ضرر الريح النافذة في المسام حتى إنهم يخشون من الريح على الحيوانات فإنهم إذا أوقفوا الحصان في سيره أداروا وجهه إلى غير جهة الريح وقس على ذلك.

أما أرض مالطة فإنها ملطة صخرة جرداء قليلة الثرى والشجر والنبات، ودائرها كله صخر لا ينبت فيه شيء إلا أنه لشدة اجتهاد أهلها وفرط كدحهم ينبت فيها أكثر أصناف البقول والفاكهة، لكن غلتها لا تكفيهم أكثر من أربعة أشهر، والباقي يجلب إليهم من بلاده، فيجلبون القمح والقطاني من مصر ومن بلاد الترك والروم، ويجلبون الفاكهة والخمر من صقلية، والبقر والضأن والزيت من أفريقية، وهلم جرا. وزعم بعض أن ترابها مجلوب في الأصل من صقلية، وترى شجر الخرنوب والصبار التي لا تتوقف على كثير من الثرى أعز من شجر الجوز في الشام، أما شجر الخرنوب فيكون لاصقًا بالأرض كأنما هو أزرار، وأما الصبار فتراه محوطًا بالجدران العالية كأنما هو حديقة، وينوطون بكل منها ورقة من الثوم منعًا لإصابة العين مع أنها مما تنبو عنه العين، وإذا سألت أحدهم عن قلة الغياض عندهم قال: نحن معاشر الإفرنج لا نصرف همنا إلا إلى زرع الأرض، فما أقل ظلهم وأكثر ظلمهم، وإذا ضحيت إلى الخلاء وجدت بين كل حقلين جدارًا عاليًا لحجز رؤية ما دونه فأين هذا من سهول فرنسا وإنكلترة البادية للعين على نضرتها وريعها، وعلى كثرة ما فيها من أكاديس الغلال والعشب من دون ناطور يحفظها أو حائط يسترها.

ويوجد في مالطة أكثر أصناف الأشجار المثمرة والبقول المأكولة، وفاكهتهم طيبة في الجملة إلا الليمون الحلو وقصب السكر والخيار، فأما الصبار فأكثره نوى، وكذا الرمان، وأكثر الفاكهة يباع فجًا، وقلما يدعونها تنضج خوفًا من اللصوص أن تسرقها، وجميع أصنافها أرخص منها بمصر. والتين على أصناف متنوعة، والعنب لا يدوم أكثر من ثلاثة أشهر، أما البردقان فإنه يدوم نحو سبعة أشهر، ويرسل منه إلى بلاد الإنكليز وغيرها كالطرفة. فأما ما يأتيها من الثمر من صقلية فإنما هو سداد من عوز، وعندهم من الفاكهة أصناف لا توجد في بلادنا منها صنف يقال له الفراولي، وهو حب أحمر صغير بقدر ثمر العليق حامض يصلحه السكر، وآخر يقال له نصبلي، وهو شبيه بالمشمش أو بعين البقر ونواه كبير، وآخر اسمه زربي وهو أشبه بالزعرور شديد الفجية، يجعلونه أعذاقًا كأعذاق التمر، فينضج منه كل يوم حبات، ويدوم العذق بجملته أشهرًا، ولا يعرفون حفظ الفاكهة إلى أوان الشتاء كما يفعل في بلاد الإفرنج، فإن العنب والتفاح في فرنسا وإنكلترة لا ينقطعان أصلًا.

أما بقولهم فغير طيبة؛ وذلك لكثرة مائيتها، فإذا رأيتها في السوق سرك نضارتها، ولكن متى طُبخت جاءت مسيخة حتى إن البصل والفجل وما أشبههما مما طبعه الحرافة لا طعم له عندهم، لا بل إذا جُلبت من بلاد أخرى يتغير طعمها، وكذا الكرنب والباذنجان ونحوه، ولا يكاد يبدو نوع منها إلا ويغلظ ويجسو، ومن الغريب أن نباتها مع كونه بهذه الصفة فعسلها في غاية الجودة، ومما لا يوجد عندهم من الخضرة الكوسى والقثاء والملوخية، ومن غيرها اللبن والقشطة والسمن، وإنما يجلبون نفاية هذا أحيانًا من طرابلس الغرب، وأهل مالطة جميعًا يتقززون منه ويطبخون إدامهم بشحم الخنزير.

أما ماؤها فإنه ماء المطر مخزونًا في الآبار غير سائغ فما شربه ذو تعب أو ظمأ إلا وأصابه سعال، وكثيرًا ما يحدث عن شربة واحدة نفث الدم، فشتان بينه وبين ماء النيل الذي يطيب شربه على التعب والظمأ، ولا يزيد الشارب إلا صحة ونماء جسم، فلا ينبغي لأحد أن يشرب من ماء مالطة إلا ترشفًا. ونُقل عن أرسطو أن الماء الراكد الذي لا تقع عليه الشمس لا يكون إلا ثقيلًا، وتتولد فيه مادة طينية.

أما حدائقها؛ فأشهرها حديقة صانت أنطونيو مقر الحاكم في الصيف، وهي التي نزل بها الأمير بشير شهاب بأهله، أخلاها له الحاكم إجلالًا لشأنه، وهي نضيرة حسنة الوضع إلا أنها في منخفض من الأرض، وليس فيها مقاعد أو مواضع ليأكل فيها المتفرج أو يشرب، وليس للمالطيين عادة أن يأخذوا إلى مثل هذه المنتزهات طعامًا لا في الأعياد ولا في غيرها اتباعًا لعادة الإنكليز؛ إذ لا يمكن لهم الجلوس إلا على كرسي، فغاية حظهم من ذلك إنما هو المشي أو أن يضع أحدهم ذراعه بذراع صاحبه ويمشيان الخيلاء، أو أن يمشي وحده وهو يصفر ويمكو، وعلى تقدير وجود رصف عندهم أو روضة فلا يعرفون كيف ينبسطون عندهما سوى بالمشي، وأعرف رصفًا يسمى البياتا أنيقًا جدًّا ولكن ليس فيه محل للقهوة ولا للمثلوج، ولا مطعم ولا آلة طرب، ولا كرسي يجلس عليه، ولو كان مثله في باريس أو في مصر أو الشام لرأيته من أوله إلى آخره مرصوفًا بالكراسي والمتكآت، ومشتملًا على كل ما تطيب به النفس، وفي الجملة فإن الإنكليز والمالطية جميعًا لا ذوق لهم في مثل هذه الأمور.

ثم البوسكت ومعناه الغيضة، وهو على بُعد ثلاث ساعات من فالتة، وهو سيئ المنحدر قليل الجدوى، فإنه عبارة عن شجرات معدودات وزهرات شعث لا صنعة في تنبيتها إلا أن فيه قبوة فيها عين نضاحة، وحولها مائدة ومقاعد من حجر يقعد عليها

الآكلون، فهذا الموضع أنزه موضع في الجزيرة، وذاك الماء أعذب ماء بها، وبقربه برج كان في القديم سجن يُعذَّب فيه من يخالف الكنيسة كما كانت العادة أيضًا في إسبانيا وغيرها. ثم المطحلب وهو أنضر من البوسكت وأبعد؛ لكونه عند أقصى مالطة طولًا، وفيه بركة يعلو ماءها طحلب، وكأن الموضع سمى به، ونواعيرهم نحو نواعير الشام ومصر، وأهل تونس وطرابلس يستعملون السانية، وهي في اللغة الناقة يسقى عليها، ويطلقونها على البستان.

والحاصل أن جزيرة مالطة لا تعجب من الإفرنج إلا القليل، وذلك لأنهم إذا جاؤها لم يجدوا فيها شيئًا غريبًا لا يوجد في بلادهم، فإن كل ما فيها إن هو إلا نفاية ما عندهم. هذا وليس منهم من يرغب في علم اللغة المالطية؛ إذ كانوا يعلمون أنها عربية فاسدة، وليس فيها من الصنائع والفنون ما يجهله أهل الرستاق منهم فضلًا عن المتمدنين، وإنما هي مجاز يجوزون منها إلى الشرق، نعم إن بعضًا من المظلومين في إيطاليا وخصوصًا صقلية يأتون إليها للاستئمان، وإنها لما كان موقعها بين عدة برور شرقية وغربية حصلت على هذه الشهرة، ولا سيما الآن فإنه قد يتعذر السفر إلى بعض جهات الشرق من دون المرور بها.

فأما العرب فربما لا تعجب منهم أحدًا، وذلك لأن أهل مالطة جميعًا يكرهون جنس العرب والمسلمين على الإطلاق، ومنتهى الذم عندهم أن يقولوا عربي بسكون الراء على أنها في جميع لغات الإفرنج بالفتح، ولا يمكن أن يخطر ببالهم أن من العرب من هو ذو أدب وكياسة، بل لا يكادون يظنون أن اللغة العربية يتكلم بها غير المسلمين، وحيث كانوا يعلمون أن الإفرنج ينسبونهم إلى العرب زادت بغضتهم له، فما أحد ممن ألف الحظ في الحمام والبساتين والغياض والمواسم والتأنق في المطاعم يترك بلاده ويأتي إلى هذه الصخرة الصماء.

هذا ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا يطيق أن يسمع الكلام المالطي على فساده، ومع كون هذه الجزيرة قريبة جدًّا من تونس وطرابلس فما بها أحد منهما إلا عابر طريق. قال الشاعر:

وأصعب ما يلقى الفتى في زمانه إذا حل نجم السعد في برج نحسه
إقامته في أرض من لا يوده وصحبته مع غير أبناء جنسه

فصل في فالتة قاعدة جزيرة مالطة

هذه المدينة هي مقر الحاكم الإنكليزي، وأعجب ما فيها حصانة أسوارها وحسن مرسييها. أما الأسوار فربما كان نصف أحدها من صخر وتمامه مبني بناءً، وأما المرسى فقد مر ذكره، والغالب عليها الرونق والبهجة حيث كان بناؤها من الحجر كما مر وطيقانها مزججة، ولا سيما إذا عرضتها من بُعد، غير أنها خالية من المناير ونحوها، فهي بدونها كالهامة القرعاء، وأحسن ما يستحب من ديارها كونها مبنية من الحجر على صف مستوٍ، فلا ترى فيها دارًا خارجة عن الخط أصلًا غير أنها متفاوتة الارتفاع، وليست مرتبةً في وضع الغرف والمساكن، فإن الدار الكبيرة تكون عبارة عن علية واسعة طويلة، ثم صف حجرات متنافذة المدخل فلا يمكن للإنسان أن ينفرد بواحدة منها دون الأخرى.

فأما الديار الصغيرة ولا سيما القديمة فهي خالية عن الترتيب أصلًا ومنجورها يصبغ غالبًا في كل سنة، وحيطانها ملبسة بالورق المنقوش كما في بلاد أوروبا، إلا أن طاقاتها لا تفي بالمراد، فإن بين الأهلين حقوقًا في المطال، فلا يمكن فتح الطيقان في جميع الحيطان، وما عدا ذلك فإن لها رواشن خارجة من الحائط موضوعة بحيث تمنع النور والهواء، وهي عالية لا يمكن لمن يكون في الحجرة أن يرى منها شيئًا إلا إذا كان واقفًا فيها أو جالسًا على كرسي، وهي أشبه بما يسميه أهل الشام كُشكًا، ويقال: إن وجود هذه الرواشن بمالطة هو أحد الأدلة على كونهم عربًا؛ إذ هي لا توجد في بلاد الإفرنج إلا في ما فتحته العرب منها، وربما كان في الدار الواحدة ثلاثة رواشن وَقَلَّ أن تجد دارًا ذات ثلاث طبقات صالحة للسكنى، والأغلب اثنتان، وإن وجد فالثالثة إنما تكون للوازم الدار، وَقَلَّ أن ترى فيها دارًا مبلطة بالرخام حتى إن قصر الحاكم ليس فيه ولا بلاطة منه، وإنما المستعمل في ديار كبرائهم البلاط المعروف، ولكن يدهنونه بالزيت مرارًا بعد أن يُكشط وجهه فيصير له لون كالكهرباء، وكذلك قَلَّ أن ترى في الديار التي

تكرى خزائن أو مخادع أو رفوف، وإنما يلزم شراء ذلك على حدته، وليس فيها ولا في غيرها فوارات ولا ساحات فسيحة كديار دمشق، ولا إسطبلات، ومن كان عنده فرس ربطه في الخارج، وأقل من ذلك المارات فإنهم يشترون مؤنتهم يومًا فيومًا، بل ربما إذا ادخروها فسدت كما تقدم، ويرون ذلك تخفيفًا للكلفة، فإن صاحب العيلة إذا ربى في منزله الحيوان وخزن المؤنة واتخذ الخبز كان له ولأهله شغل شاغل، ولعل سبب ذلك في الأصل عدم انتقال الأسعار.

ومما يقبح ذكره هنا أن أكثر البيوت الصغيرة ليس فيها مراحيض، فيرفع أهلها أقذارهم في وعاء، ويقذفون بها في الطرق ليلًا، فيأتي الكناسون للطرق صباحًا ويزيلونها، وقد كانت العادة من قبل أن المحبوسين لجرائرهم هم الذين ينظفون الطرق بأن يخرج بهم شرطي وهم مقيدون، والظاهر أن المالطيين قبل مجيء الإنكليز إلى جزيرتهم لم يكن عندهم مراحيض، وإنما كانوا يستغنون عنها بثقوب ينقبونها في أسفل الدار، وكانوا غير محتاجين إليها أصلًا كما قال الشاعر:

من يكن عيشه كعيشك هذا   فلتكن داره بغير كنيف

وقَلَّ أن توجد دار بأثاثها وفرشها كما في مدن الإفرنج، ومن شروط الإيجار: أن يستأجر الإنسان الدار على ثلاثة أشهر فما فوق ذلك، ويعطي الأجرة سلفًا، وقبل انقضاء المدة بأيام يؤذن المستأجر ربها بأنه يريد أن ينتقل منها أو يجدد استئجارها، فإذا انقضت المدة ولم ينتقل لزمه إعطاء الأجرة، غير أنه لا يسوغ للمالك أن يرمي بأمتعة المستأجر أو يخرجه كرهًا، وإنما عليه أن يضرب له أجلًا ولو شهرًا، وإذا عرضت دار للكراء كتب صاحبها ورقة تؤذن بذلك، وألصقها ببابها؛ إذ ليس عندهم شيخ حارة تتجمع عنده المفاتيح كما في مصر، ومن استأجر دارًا فلا بد وأن يدخلها مبيضة مصبوغة المنجور، وصبغ الخشب عادة حميدة فإنه أبهى للنظر وأبقى للخشب، وقد تظهر به الدار بهية في الخارج، وربما كان داخلها بخلاف ذلك، وهي عكس العادة عندنا فإن خارج ديار مصر والشام مظنة للهمجية مع أن داخلها منقوش مزخرف؛ وسبب ذلك أن الحكام في السابق كانت أيديهم ممتدة لأخذ أموال الناس فلم يكن أحد من الرعية يتظاهر بالغنى لا في بناء ولا في لباس، أما صبغ الزجاج في مالطة فغير مستعمل.

ثم ليس على عزب أراد أن يسكن بين المتزوجين من حرج، ولا حرج عليه أيضًا في الصعود إلى سطحه، ولا يطلب منه ضامن من حيث أدبه وحسن تصرفه، ولكن من حيث كونه قادرًا على الأداء.

وللديار آبار يجتمع فيها الماء من المطر، فإذا نفد التمس صاحب الدار من ناظر الأقنية فأمده بماء من عين جارية، وسواء في ذلك القريب والغريب، ومن لا بئر له استسقى من العين المشاعة، وكثيرًا ما تجعل المطابخ تحت الأرض ولها خروق في سطح الطريق ليدخل منها الضوء، فتكون سقوفها مساوية لسطح الطريق، وكذا هي مطابخ لندرة غالبًا. ولا تخلو كل دار عن فسحة صغيرة لقوارير الزهور، ومن هذه الزهور ما لا رائحة له ولا وجود له في بلادنا، وفي الديار الكبيرة ولا سيما التي يتبوأها الإنكليز أجراس صغيرة مدلاة بأسلاك حديد نافذة في الغرف، ويتصل بها شرائط من حرير، فإذا أراد المخدوم إحضار الخادم جذب الشريطة فسمع الخادم صوت الجرس من كل جهات الدار، وهذا أوفق من التصفيق باليدين، وربما كتبوا على صفحة الباب اقرِع الباب أو أطن الجرس، وكذا العادة في بلاد الإنكليز، ولكن ليس في الأبواب هنا خروق لوضع المكاتيب كما في ديار لندرة.

أما طريق المدينة فإن الماشي فيها أبدًا يصعد ويهبط كحيزوم السفينة في الأمواج، غير أن لها درجًا يهون من صعبها، ويمكن المشي على حافاتها تحت المطر، ولكل طريق حافتان عن اليمين والشمال لمر الناس ومرور الخيل والعجلات في الوسط، وقد كانت جميعها سابقًا مبلطة، فكانت قرقعة العجلات عليها لا تطاق، فاقتلعت الإنكليز بلاطها من الوسط، وجعلوا بدله ترابًا وحصى. فقال أهل مالطة إن الإنكليز دأبهم أن يحربوا بلادهم كما حربوهم من قبل بأخذهم مدافع النحاس ووضعهم مكانها أخرى من حديد، والحق يقال إن فرش الطرق بالتراب والحصى يجعلها في الصيف مثارًا للنقع، وفي الشتاء مناقع للوحل، وإنما فعلت الإنكليز ذلك مراعاة لرضى بعض الأعيان الذين لهم عواجل، فلِنفع هؤلاء وحدهم أغمضوا عن نفع العامة، وهذا دأبهم من أنهم يراعون خاطر العلية دون الجمهور، والباقي من الحجر على الحافتين متى تصبه الشمس في الصيف يصر مسدرًا.

هذا، ولما كان أهل مالطة أحرص الناس على ملابسهم وأحذيتهم كان خروجهم في الطرق ولا سيما في الشتاء قليلًا، فتبقى الطرق دائمًا نظيفة، فأما في لندرة فإن النساء يخرجن صيفًا وشتاءً ويلبسن نحو قباقيب تقيهن من الوحل، فلهذا تكون طرقها وسخة جدًّا، وقد رأيت كثيرًا من الإفرنج يعجبون بنظافة طرق مالطة ويفضلونها على كثير من

طرق المدن العظيمة بأوروبا، غير أن زوايا كل منها ممتلئة قذرًا ونجاسة، ومنها ما لا يمكن لاثنين أن يمشيا فيه معًا، وفي كل زاوية فانوس مركوز على دعائم من حديد يوقد الليل كله، ومثل هذه الفوانيس لا يوجد في لندرة وباريس إلا في أضيق الطرق وأردأها، وقد بلغني بعد تحرير هذا الكتاب أن أنوار فالتة تستعمل الآن من الغاز.

ثم لا يخفى أن الإفرنج دأبهم أن يشنعوا على العرب والترك أن بلادهم غير نظيفة الطرق ولا مرتبة الأسواق، وقد ملأوا الكتب بذلك، ولم أر منهم من مدح مدينة ما إلا أنهم قد أفرطوا في ذلك، فإن أكثر هؤلاء يذهب إلى بلادنا مستوفزًا، ويرقد في الخانات فلا تمكن له مشاهدة ما فيها من الديار الرحيبة، والمنازه الفسيحة النضيرة، فيتأذى مما عانى، ويحمل ذلك على مناكب البلاد جزافًا، ويغض النظر عن سيئات بلاده، فإن حوانيت أهل الحرف والصنائع في فالتة وغيرها أيضًا متفرقة في جميع أطراف المدينة، فربما كان دكان الحداد تحت دار قاضٍ أو مطران، ولا تزال أصوات المطارق بالغة مسامعه، وكذا الزواني ففي كل طريق هنا ترى منهن جملة حتى قدام قصري الحاكم والمطران، وكثيرًا ما يتفق أن صاحب العيلة يستأجر دارًا بجانب زانية تكون إذ ذاك غائبة، فلا يدري بها حتى إذا تبوأ محله أقبلت تجر ذيول عهرها، فمتى قدمت البحرية سمعت لهم ولهن ضجيجًا منكرًا، ولا تزال تسمع سفلة أهل البلد هنا يغنون في الليالي ويزاطون ولا وازع لهم، فهل هذا يعد من الترتيب؟ أما أصوات الأجراس من الكنائس فبلية كبرى، وبالجملة فإنه قلما يتهنأ الإنسان هنا في سكنى دار.

ثم إنه ليس في فالتة حمام منظور يتطهرون به من نجاستهم فإذا اضطروا إلى كشط الوسخ عن أبدانهم استحموا في البحر. نعم إنه يوجد محل أطلق عليه لفظ الحمام، ولكنه ليس في صفة الحمامات التي في بلاد المسلمين؛ إذ هو عبارة عن مغطس فقط من دون تكييس ولا تكبيس ولا عرق، على أنه غالٍ جدًّا، ونحوه حمامات بلاد الإفرنج غالبًا من حيث الكيفية لا من حيث الغلاء والمتنكلزون من المالطيين يقلدون مواليهم في اتخاذهم مغاطس من قصدير أو خشب في ديارهم، ويدعون أن ذلك أسلم للجسم وأنظف، ولعمري ليس السبب في عدم الحمامات هنا إلا رداءة الهواء، فإن من كان في محل دفيء وخرج منه مقابلًا للريح لا يأمن أن يمنى بداء. وكنت قد ذكرت يومًا لبعض الأطباء عادتنا على الحمام وتنغصت لفقده، فقال لي: لو كان عندنا حمامات لما كان من يستحم فيها، وقوله هذا يحتمل معنيين؛ فإما أن يكون قد أراد أن المالطيين لا يستعملون ذلك، أو أن الحمام يميت الناس حتى لا يعود أحد يدخله، وهذا دأب هؤلاء في الاعتذار

عما لا يوجد في بلادهم، فإنهم يقولون إنه غير نافع، أو غير موافق كجواب آخر، وقد سألته عن وجود رفائين للجوخ والشال الكشميري، فقال: نحن الإفرنج لا نعني بمثل هذه الصنائع، مع أنهم أعظم الناس اقتصادًا وتوفيرًا وأكبرهم هنا يرقع سراويله من دبر، ويمشي كذلك من دون رداء يستر رقعته، وليس في هذه المدينة كلها مصطبة يقعد عليها، فلا يمكن للإنسان الجلوس إلا في بيته أو في محل قهوة. نعم، إنه يوجد مصطبة عند قصر الحاكم، ولكن لا يقعد عليها إلا الأوباش فإن القعود عند الإنكليز على هذه الصفة عيب، وتابعهم المالطيون على هذا، ويقال: إنه كان في المدينة سابقًا عدة مصاطب فأزالها الإنكليز إلحاقًا لها بلندرة.

فأما محال القهوة في فالتة فإنها عبارة عن مخازن مظلمة ليس فيها شباك يطل على البحر أو على حديقة، وإذا أطلت الجلوس جاءك الساقي ومسح المائدة قدامك إشارة إلى أنه ينتظر غيرك، أو كأنه يقول بلسان الحال لقد أبرمت بي فمتى تفارق، ولا يمكن لأحد أن يقعد ناحية البحر ساعة واحدة؛ لأنها جميعها قذرة، ولا يمكن له في المطال المرتفعة الكاشفة على البحر أن يأكل أو يشرب أو يدخن احترامًا لنساء الإنكليز، وفي شواطئ البحر حيث يعوم الناس مدة خمسة أشهر لن ترى كنًّا أو عرشًا أو خيمة، وإنما ينصب السابح حر وجهه للشمس، فيحترق قبل طلوعه من الماء. وفي الحقيقة فإن الإنكليز جعلوا مالطة خالية عن المنازه والمثابات السارة أصلًا.

ومن أعظم أسباب الحظ عند المالطيين الذهاب في القوارب ليالي الصيف؛ ليغتسلوا في البحر، فتذهب الرجال والنساء معًا، ويقضون هزيعًا من الليل بالسباحة والغناء، والقوارب في مرسى فالتة كثيرة جدًّا، وكلها مصبوغ ظريف، ولكن ليس فيها مقاعد كقنج مصر ولا زرابي أو زخرفة كقوارب الأستانة، إلا أن هذه خطر على راكبها فإنها لخفتها تميد من أدنى شيء، ولقائل أن يقول إن المالطيين هم مثل الإنكليز في كونهم لا يلاحظون في لوازمهم سوى مجرد المصلحة بقطع النظر عن الترفه والطلاوة فإن متكآتهم ورواشينهم وكراسيهم وقواربهم وسروج خيلهم ليست مجعولة إلا لقضاء الحاجة فقط، وأغرب من ذلك حوانيتهم، فإن التاجر لا يزال واقفًا من الصباح إلى المساء، وَقَلَّ من كان عنده كرسي له أو للمشتري، وفي هذا الأخير خالفوا الإنكليز. ويقولون للقارب «دعيصة» وكأنه تصغير دعصة الرمل، شبهوه بها؛ لاستدارته وصغره، وهذا دأب العرب في أنهم يسمون الأشياء الغريبة عنهم بما ألفوه في بلادهم. فإن قلت إذا كان هذا دأب العرب فمن أين للمالطيين ذلك؟ قلت: لا ينكر أحد أن اللغة المالطية هي عربية، وأن المسلمين حين

استولوا على الجزيرة، كما مر، هم الذين سموا هذه الأشياء، وإنما لم يقولوا قاربًا مع كونها عربية فصيحة؛ لأن في اللغة المالطية أشياء كثيرة عدل بها عن استعمالها الأصلي، واستعير لها أسماء مشابهة لها أو مجاورة فيقولون مثلًا للقليل فتيت، وللكثير وسق، وللحصان زامل بالإمالة وهو ما كأنه يظلع من الدواب لنشاطه، وللقرية رحل، وهو في اللغة مسكن الرجل وما يستصحبه من الأثاث وغير ذلك.

ومن ذلك — أي الحظ عندهم — التماشي أمام قصر الحاكم حين يعزف بآلات الطرب العسكرية، فيذهب إلى هناك جميع المتشبعين المتكيسين، فترنو الرجال إلى النساء، وتدل النساء على الرجال، ومع ذلك الأعياد الكنائسية، وهي كثيرة جدًّا، فإن لكل قديس عيدًا مختصًا به في زمن مخصوص ومكان معلوم، فيرحل إليه عند اقترابه المتلهون، ويقضون ما تيسر لهم من اللذات وسماع الموسيقى ورؤية لعب النار وما أشبه ذلك، ولا بد للأوباش في هذه الأعياد أن يسكروا ويفحشوا ما أمكن، ومن ذلك حلبة السباق وقد تكون في الخيل والحمير والقوارب، والسابق يفوز بالخطر.

ومن ذلك زحلوقة لهم يحضرها ألوف من الناس، وهي أنهم يربطون خشبة طويلة كصاري المركب إلى سفينة، ويدهنونها بما تزل عنه القدم، وينصبون أمامها غرضًا، ثم يمشون إليه على تلك الخشبة فمن زل عنها وقع في البحر.

ومن ذلك ثلاثة أيام في المرفع، ويُعرف بالكرنيفال، وهي الأحد والإثنين والثلاثاء، يلبس فيها الرجل كالمرأة والمرأة كالرجل، ويتزيون بهيئات متنوعة وأشكال مختلفة، ويغطون وجوههم بجلود على هيئة الوجه، ويطوفون في المدينة حيارى سكارى، ويسمون هذا التشكل مسكرة، وكأنه محرف عن المسخرة، ولا يتحاشون في هذه المدة شيئًا من الخلاعة والقصف والمنكرات، ويومئذ تغص الطرق بالناس والمراكب، فإذا أصبح يوم الأربعاء ذهبوا إلى الكنائس، ونثروا الرماد على رءوسهم إشعارًا بالإنابة، ومن ثم يقال لهذا اليوم أربعاء الرماد، وهذا الاسم باقٍ عند الإنكليز مع إلغاء هذه العادة عندهم، ومعنى الكرنيفال رفع اللحم؛ أي إزالته. ومما جرت به العادة في هذه الأيام أن الحاكم يولم وليمة فاخرة، ويدعو إليها وجوه أهل البلد بتذاكر يرسم فيها بقدومهم بملابس مسخرية فيلبونه، ويستأجرون هذه الثياب من الحوانيت، فيقف لهم في غرفة في قصره، وكلما قدمت عليه عيلة انحنت له فاحتفل بها فإذا انقضى السلام شرعوا في الرقص، وكلما رقصت النساء قليلًا أخذهن الرجال إلى المائدة؛ ليأكلن أو يشربن ما شئن، ثم يعدن إلى الرقص حتى مطلع الفجر فتتفرق الأصحاب، وربما اتخذ بعض جشعي المالطيين من

تلك المائدة خبنة، وهي ما يحمل من الطعام في الكم، وكنت أذهب إلى تلك الدعوة بزيي المألوف فيخالونني من الساخرين، وكانوا يسألونني هل في بلادكم مثل ذلك؟ فأجيب مغالطًا إن لم يكن عندنا هذا فخير منه، ولعمري قبيح بالرجل الفاضل أن يرى راقصًا كالولد.

ومن أعظم مواضع الحظ واللذات: الملهى، وهو المسمى عندهم بلفظة الثياطر أو الثياطرو، وليس في فالتة كلها سوى ملهى واحد، وجل اللاعبين فيه من إيطاليا، ولكن ليسوا من الطراز الأول، وسيأتي الكلام بالتفصيل على ذلك إن شاء الله تعالى، فإني التزمت إيجاز الكلام على هذه الأمور في مالطة؛ ليكون مناسبًا لأحوالها إذ جميع ما فيها إن هو إلا مختصر من بلدان أوروبا، والظاهر أن المسلمين كانوا يطلقون على هذا الموضع اسم الملهى فقد كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب ما نصه:

> إني فتحت مدينة المغرب، ولا أقدر أن أصف ما فيها غير أن فيها أربعة آلاف حمام، واثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر، وأربعة آلاف يهودي يؤدون الجزية، وأربعمائة ملهى. ا.هـ.

غير أن هذا القدر كثير على أية مدينة كانت، فإن باريس وما أدراك ما باريس لا تحوي إلا ثلاثين ملهى، ويحمل أن المراد بالملهى هنا كل موضع يكون للهو، فيدخل فيه موضع الحكايات والمشي والاجتماع، ونحو ذلك.

وأما قول بقال ففي القاموس في ب ق ل، والبقال لبياع الأطعمة عاميَّة، والصحيح البدَّال، ونحوه قوله في ب د ل، غير أنه فسر القربق في باب القاف بأنه دكان البقال فليحرر. ومن الغريب أن أحد المشعوذين الطليانيين أبدى في ملهى فالتة من التمثيل والتخييل أمورًا غريبة، ثم أراهم أيضًا منشورًا من البابا بالرخصة له في هذه الحرفة، فصدقه كل من رآه، فهلا كان هذا المنشور أيضًا من جملة شعوذاته.

ومن المباني العظيمة في هذه المدينة: الكنائس، وهي حسنة البناء متقنة مزخرفة بالنقوش، والدمى، والتماثيل، والصور، مزينة بالأرجوان والإستبرق وأدوات الفضة والذهب، وفيها عشرون كنيسة على هذا النسق، وأعظمها كنيسة صان جوان وهي مبلطة كلها بالرخام المنقش المصور عليه صور أعيان مالطة الأقدمين المدفونين فيها، وفي صدر الكنيسة تمثالان للمسيح ولصان جوان رافعًا يده فوق رأسه «أي رأس المسيح» يعمده، وهما من الحجر يراهما الداخل من الباب أكبر من الرجل الجسيم، وبخارج الكنيسة

صفحة ساعة يعلم منها الساعات والأيام والشهور والسنون، وإذا ضرب جرسها سمع صوته كل من في المدينة فيضبطون ساعاتهم عليها، وفي هذه الكنائس من الذهب والفضة والتحف ما يغني جميع صعاليك مالطة، ولكل يوم من الأسبوع بدلة للقسيس خصوصية، وقس على ذلك أيام الآحاد والأعياد والأحوال الطارئة كالزواج والمعمودية والموت، وفي الحقيقة فإن كثرة الكنائس الحسنة في جزيرة مالطة على نحسها لما يعجب منه، وفي كل قرية ترى ثلاث كنائس فأكثر، وأول افتخار المالطيين إنما هو بكثرة كنائسهم؛ إذ ليس عندهم شيء آخر يتباهى به، والتفاخر صفة قائمة في النفوس، وإذا سرت إلى قرية ما متنزهًا فلا تكاد تصل إلا وتحدق بك جماعة ليروك كنائسهم، وجملة ما يُصرف على الكنائس والقسيسين يبلغ ثلاثين ألف ليرة في العام، ولا يعرفون ضرب الأجراس بالحبال كما يفعل الإنكليز، وإنما يصعدون إلى قبة الجرس، ويحركون مطرقته باليد بما تنقبض منه النفس ويشمئز الطبع.

ومن ذلك مدرسة جامعة يعلم فيها الفنون واللغات، وفيها كنت أعلم اللغة العربية إلا أن المالطيين يتعلمون كل شيء ما عدا لغتهم، وفي مدة الصيف يعطل المعلمون نحو ثلاثة أشهر، وأجرهم غير ممنون، وعند انقضائها يُعين يوم لاجتماع التلامذة ومشائخهم في حجرة في المدرسة، وفي الصدر مائدة عليها كتب، ثم يقوم أحد المشائخ وهو في الغالب صاحب المعاني والبيان فيلقي على الحاضرين خطبة، ثم تقرأ أسماء من نبغوا في العلم من الطلبة، ويعطون من تلك الكتب ما يليق بهم، وربما حضر الحاكم بنفسه لهذا، ولا بد من أن يعطى لكل معلم دفتر يكتب فيه أسماء الطلبة، وما يحصلونه من الفنون، ويشترط عليه أن لا يعلم تعليمًا مغايرًا للديانة الكاثوليكية الرومانية.

ومن الغريب أن أهل مالطة مع كون لغتهم فرعًا عن العربية فليس منهم من يحسن قراءتها والتكلم بها، وإذا شاء أحد أن يفتح مكتبًا بمالطة تمتحنه علماء هذه المدرسة أولًا، فإذا رأوه أهلًا لذلك أعطي رخصته من الديوان فيه، وجملة ما يُصرف على هذه المدرسة وعلى مكاتب أخرى في القرى في كل سنة نحو ثلاثة آلاف وثلاثمائة ليرة، ومن ذلك دار كتب موقوفة باللغات الإفرنجية، فمن شاء أن يطالع كتابًا منها ذهب إليها واستوعبه، وإن كان من الوجوه يحضره إلى منزله، وعدة ما فيها ثلاثة وثلاثون ألف سفر، وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل.

وفي المدينة أيضًا عدة حوانيت مشحونة بأصناف الكتب ليس فيها خرم ولا نقصان، ويمكن أن يقال: إن الكتب بأوروبا أرخص ما يكون، لا جرم أن المولع عندهم بالعلوم

مع سعة ذات اليد لأسعد الناس؛ لأنه إذا شاء أن يتعلم أي فن كان وجد له فيه شيخًا، ولأن الكتب والأدوات اللازمة لذلك الفن حاضرة عتيدة يجدها بأهون سعي، ولا يخشى في الكتاب خرمًا كما ذكرنا ولا تحريفًا، فكل كتبهم مصححة، ولأن المدارس الوقفية تُعلَّم فيها العلوم مجانًا، أو يعطى في مقابلة ذلك شيء زهيد، فطالب العلم في مالطة يعطى في الشهر شلينين ونصفًا، وطالب اللغة شلينًا واحدًا، ولعمري أن طالب العلم في لغتنا لو لم يصده عن المطالعة إلا تعذر وجود نسخة صحيحة لكفاه ذلك عذرًا، فضلًا عن نصبه وحرمانه وخموله.

وفي فالتة سبع مطابع؛ إحداها للميري تطبع فيها الأوامر والنواهي التي تصدر من ديوان الحكم والباقي للأهلين، وفيها أيضًا دار لصحف الأخبار الواردة من أوروبا، وداران للصرف توضع فيها الأموال، ومنارة فيها فانوس كبير لهداية السفن، وعدة مكاتب للصبيان والبنات يعلم فيها القراءة والكتابة والحساب والتطريز والخياطة، وغير ذلك. غير أن الأولاد تغلب عليهم لغتهم وتمنعهم عن التكلم بغيرها؛ إذ كانت هي اللغة الغالبة، وإلى الآن لم يعلم من نساء مالطة من نبغت في المعارف والتأليف، فغاية ما يتعلمن إنما هو أن يقرأن بعض كتب كنائسية، وقد كان في السابق دار مُعِدَّة لتلقي النغول وتربيتهم، وقد بطلت الدار، وبقيت عادة النغول وعادة التبني من اليتامى، وفيها ثلاثة مستشفيات؛ أحدها: للعسكر، والثاني: للرجال، والثالث: للنساء، ومن لم يكن لها مأوى تأوي إلى هذا المستشفى، وتمكث فيه ما شاءت.

وبخارجها أيضًا أربعة أخرى؛ أحدها: للمجانين، وأكثر جنون أهل مالطة يكون عن وساوس في الدين، وقد رأيت فيه عجوزًا تهذي وتقول اليوم عيد كما أمر بذلك القسيس، والثاني: للمرضى من العساكر البحرية، والثالث: للفقراء، والرابع: للطاعنين في السن العاجزين عن تحصيل معاشهم المادين لوداع الدنيا يدًا، والمغمضين عن درزها ونعيمها عينًا، قد أصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف هار يعتبر بهم اللبيب، ويتعظ بهم المستهتر في حب هذه الدنيا الغرور؛ إذ تراهم كالأغرار من الأولاد قد انحنت منهم القدود لما استوى عندهم داعي الأجل، وأظلمت منهم الأبصار بعد أن أضاء فيهم صبح المشيب، وانحلت منهم القوى بعد أن غلت منهم الأفكار والنهى، فثم يقضون ما بقي من ظمء حياتهم بكان وصار.

وفي فالتة عدة فنادق للمسافرين بهية ذات حجرات مفروشة عتيدة، أجرة كل منها في اليوم نصف شلين في الأقل، وفيها من الذكور أكثر من اثني عشر ألفًا وخمسمائة

نفس، ومن الإناث أكثر من أحد عشر ألفًا وثمانمائة وسبعين، جملة ذلك أربعة وعشرون ألفًا وثلاثمائة وسبعون نفسًا، ومن القناصل أربعة عشر، ومن القسيسين نحو مائتين وخمسين، وسبعة أديار للرهبان والراهبات، وجملة ما في الجزيرة كلها من الكنائس الكبار سبع وسبعون ومن الصغار مائتان وأربع وأربعون، ومن الأديار واحد وعشرون، ومن الأطباء مائة وتسعة وعشرون، ومن الدوائية والعقاقيرية تسعة وأربعون، ومن كُتاب الصكوك والعقود مائة وأربعون، ومن أصحاب الموسيقى مائة وثلاثة وستون، ومن المعلمين في المكاتب مائة واثنان وأربعون، ومن المصورين مائة وثلاثة وتسعون، ومن المتوظفين في خدمة الميري خمسمائة وواحد وثلاثون، ومن المرتب لهم عمريات ولا شغل لهم ثلاثمائة وستون، ومن التجار ستمائة وستة وثلاثون.

ومن السماسرة مائة واثنان وسبعون، ومن أصحاب الحوانيت ألفان وستمائة وأربعون، ومن المزارعين ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستة وعشرون، ومن الفلاحين ثمانية آلاف وسبعمائة وستون، ومن صاغة الفضة والذهب مائتان واثنان وثلاثون، ومن النجارين ألف ومائتان وثلاثة وثمانون، ومن الأساكفة ألفان وأربعمائة، ومن الغزالين والغزالات ثمانمائة وأربعون، ومن النساجين والنساجات ثلاثة عشر ألفًا وستون، ومن الخياطين تسعمائة واثنان وثمانون، ومن لفافي ورق التبغ تسعمائة وثلاثون، ومن الخدام ثلاثة آلاف ومائة وعشرون، ومن أصحاب القوارب ستمائة واثنان وأربعون، ومن الساعاتية ستة وعشرون، ومن المتعلمين في المدرسة الجامعة وفي غيرها ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثة وثلاثون، ومن الديار الكبار إحدى وعشرون ألفًا ومائتان واثنتان وستون، ومن البيوت الصغار ألفان ومائتان وواحد وسبعون، ومن الحجرات على حدتها ثمانية آلاف وثلاث وأربعون، ومن الدكاكين ثلاثة آلاف وخمسمائة وعشرون، ومن المخازن خمسمائة وستون، ومن الشون للقمح خاصة مائة وسبع وعشرون، ومن الذين لا عمل لهم من الأعيان ستة آلاف ومائتان وتسعة وستون، ومن العامة نحو أربعين ألفًا، وجملة من يزيد عمرهم على الثمانين سنة سبعمائة وثلاثة وسبعون، وجملة ما يولد فيها في السنة أربعة آلاف وأربعمائة، وجملة أهل الجزيرة نحو مائة ألف نفس منهم أحد عشر ألفًا وخمسون من الإنكليز وسبعمائة وسبعون من الغرباء.

كثيرون إن عدوا قليلون إن رجوا   فهم دون عد العشر أن تنو خيرا

وجملة ما يرد إليها في السنة من المسافرين ثمانية آلاف ومائتان وستة عشر، وما يصدر عنها تسعة آلاف وخمسمائة وثلاثون، وفي فالتة سوق تباع فيها سائر أصناف المأكول، فتجد فيها جميع أنواع السمك واللحم كالبقر والضأن والعجل والدجاج والطير، أما السمك فإنه لذيذ جدًّا، وأما اللحم فأطيب أنواعه الخروف الصغير يذبحونه وهو دون ثلاثة أشهر فيكون ألذ من لحم الطير، وهذه الطرفة النفيسة لا وجود لها في لندرة ولا في باريس، أما الطير فإنه قليل جدًّا، ولا عيب على من يشتري نصف دجاجة بل ربعها أو جناحيها أو رأسها بل مصارينها، كل ذلك من اقتصادهم، فإنهم أعظم الخلق خبرة به، ولا عيب أيضًا على من يذهب بنفسه ويشتري مؤنة يومه وإن يكن قاضيًا، بل النساء السيدات يفعلن ذلك أيضًا، ومتى اشترت شيئًا تحمله أحد الأولاد الذين مهنتهم الحمل وهم كثيرون، وكذلك لا عيب على من يشتري من البقول والحليب ما قيمته فلس واحد فقط، وليس في المدينة حمير فارهة للركوب كحمير مصر، وإنما يذهب الناس في عواجل، وهي ليست كعواجل الإفرنج، وليس لسائقها مقعد فيها، وإنما يمشي بجانبها على رجليه الحافيتين، ومتى رأى أصحابها أحدًا مقبلًا ازدحموا عليه ولا ازدحام حمارة مصر.

وليس في مالطة كلها مصانع للساعات أو الزجاج أو الأدوات الحربية والأقمشة وغيرها، فأشهر الصنائع عندهم النجارة والخياطة والسكافة والحدادة والنساجة والصياغة، وأخص أعمال النجارين الكراسي والمتكآت والموائد والخزائن والصناديق والأصونة ونحو ذلك، وقد يحسنون أيضًا إنشاء المراكب، وعمل الحدادة مقصور على سرر النوم وما يلزم للبناء، وعمل الصياغة من الذهب إنما هو الشنوف والخواتم والسلاسل والأسورة وأشكال طيور وزهور والأبازيم والإبر ونحوها، ومن الفضة الملاعق والمغارف وأباريق القهوة والشاي والأقداح والأطباق والمسارج وأوعية السكر ونحوه، فأما النساجة فلا تتعدى شقق الفوط وأغطية الفرش وقلوع المراكب، ومن هذا الأخير يبعث إلى بلاد المسلمين مقدار جزيل، وليس من أهل هذه الصنائع من يصل إلى درجة الإنكليز والفرنسيس في الجودة والإتقان، إلا أن عمل المالطية وثيق متين؛ فإذا اشتريت مثلًا حذاء أو ثوبًا مخيطًا بقي مدة لا يحتاج إلى تصليح، أما عمل الإنكليز منها فحسن في الظاهر لكنه لا يبقى على الاستعمال، وعمل الفرنسيس ما بينهما.

ومن الرسوم الحسنة في مالطة أنه إذا أراد أحد شراء شيء من الفضة والذهب ذهب إلى قيم الصنعة وسأله عن قيمته فيزنه ويكتب له تذكرة بذلك، فأما الجعل فموكول إلى التراضي، والغالب في مشترى الجواهر أن يكون أنقص من التثمين.

ومما يكره بمالطة كثرة الشحاذين وإلحافهم بالسؤال حتى إنهم يقرعون الأبواب وقت الغداء، ويجرون مع الماشي، ولا يبرحون مستجدين حتى يفوزوا بشيء، وهم يرون أن حقًّا على الموسرين أن يواسوهم بأموالهم، وإذا أعطيت أحدهم مرة فكأنما قد دون ذلك عليك في الدستور، فأينما يرك يلزمك، وأول كلامهم في الاجتداء قولهم: «عن روح مسيرك» أي أبيك، أو «عن أرواح البوركاتوريو» أي المطهر، وكان بعضهم يقول لي عن روح المحمد تيعك، والاجتداء في باريس ولندرة ممنوع.

ومما يكره أيضًا ما عدا طنطنة أجراس الكنائس المتتابعة أصوات الباعة الذين يطوفون في الأسواق لبيع الفاكهة والبقول والسمك والحليب والماء، فإن فغر أفواههم ومط أصواتهم وفظاعة لحنهم على اختلاف معنييه لما يستعاذ منه. كيف لا وهم يقولون للتفاح تفيح، وللرمان رمين، وللبطيخ بتيح «بالحاء المهملة»، وللخيار حيار «بالحاء المهملة أيضًا»، وللأجاص لنجاس، وللدلاع دليع، وللخبز حبس، وللماء للمبا، وللخوخ حوح «بالحائين المهملتين»، وما أشبه ذلك. فلا يمكن للعربي استماع ذلك، ولا سيما إذا كان في اليوم مرارًا من أشخاص ذوى شراسة وفظاظة. وعلى ذكر الخوخ يحسن هنا إيراد ما قاله بعض الأدباء: وفي الناس من يبدل الخاء المعجمة حاء مهملة، فيقول في خوخ حوح وفي خلخال حلحال، وهي مستحسنة من الغلمان والجواري، وكذلك إبدال السين ثاء وعليه قول الشاعر:

وأهيف كالهلال شكوت وجدي إليه بحسنه وأطلت بثى
وقلت له فدتك النفس مني تحز في الثواب فقال بث

قلت: هذه اللفظة ذكرها صاحب القاموس بالضم فتقال: وبس، بمعنى: حسب أو هو مسترذل، وأهل مالطة يبدلون سينها زايًا ويكسرون أولها، وأهل تونس وطرابلس لا يعرفونها، ويستعملون بدلها لفظة بركة وهي قبيحة جدًّا، وقلت أنا في مليحة مالطية:

بدت في الثياب السود والوجه زاهر وماست بقد يخجل الغصن الغضا
لها منطق عذب على قبح لحنه وفي حسن من تهواه عن لحنه أغضا

إلا أن هؤلاء الباعة ليسوا من هذا الطراز لا جرم أن النطق يؤثر في ذي الذوق السليم أكثر من الحسن، وأنه من خصوصيات الإنسان، والحسن يوجد في جميع المخلوقات،

ولقائل أن يقول: إن النظر إلى ذي جمال رائع بغتة يدهش له ويتأثر به أكثر من استماع متكلم بليغ من أول وهلة، قلنا هذا على اعتقاد الناطقية فيه، فلو فرضنا أن الناظر يرى جميلًا معتقدًا أنه أخرس وقبيحًا منطيقًا لتأثر بالثاني دون الأول.

وأشذ ما يكره في هذه الجزيرة هو أن الأوباش والأوغاد يترددون حيث تتردد الخاصة وذوو الفضل، فقلما رأيت مكانًا خاليًا منهم، وإذا لقوا أحدًا من الوجوه، سلقوه بألسنتهم ولمزوه، فعلى الكريم أن يجتنب محضرهم ويتباعد عن مثابتهم، وأسوأ من ذلك أن القضاة يعتبرون هؤلاء الأنجاس عند التحاق والتخاصم اعتبار الخيرين من الناس، وهذا الذي جرأهم على التمادي في القبائح، وهؤلاء الأراذل إذا شربوا قدحًا واحدًا من الخمر طافوا الأسواق وهم زائطون ضاجون يظهرون بذلك طاقتهم على الإنفاق، وفي ليالي الآحاد والأعياد تغص بهم المسالك، فلا يطيق أحد سماع غنائهم ولغطهم.

هذا وكثيرًا ما ترى الملاحين والبحريين سكارى في الأسواق حيارى، وإذا صرعتهم الخمر في الطريق يمر الناس بهم ولا يبالون، وربما سُرق منهم وهم على هذه الحالة ما بقي لهم من الحانة أو جُردوا عن ثيابهم وهم لا يشعرون، وربما تقاي أحدهم ثم عاد إلى الشرب، إلا أن منزلة السكارى من عسكر المدينة أجل من العسكر البحرية، فإن أولئك يجررون إلى مقامهم تجريرًا وهؤلاء يغادرون صرعى عرضة للناهبين.

ومما يُحمد في مالطة عدم العقارب والحيات وسائر الهوام المضرة، وإن وجدت فلا سُم لها، وأهل مالطة يزعمون أن ذلك من كرامة ماربولس حين ألقى الثعبان من يده في النار، وأخبرني ثقة بأن الحيات في جزيرة كريد أيضًا لا سُم لها، وأهل إيطاليا يقولون إن ماربولس أزال السم من أفواه الحيات فانتقل إلى أفواه أهل مالطة، وزعم بعض من الإنكليز أن ماربولس لم يمر بمالطة، وإنما كان مروره بملطية.

إلا أنه يكثر عندهم البق والذباب وهذا يوسخ كل شيء أبيض، والعناكب تلقى لعابها بين كل شيئين، أما العثة فإنها لا تلحس الصوف لحسًا كما يقول صاحب القاموس وإنما تسترطه استراطًا، وفي معنى العناكب قلت:

غدا بيتي كثير الفرش لما … تهلهل فيه نسج العنكبوت

فلا عجب إذا ما قلت يومًا … لكيد الناس إني ذو بيوت

فصل في عادات المالطيين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم

عادة أهل مالطة المتشبعين في اللباس كعادة الإفرنج إلا أن نساءهم يلبسن وشاحًا من الحرير الأسود وعلى رءوسهن غطاء منه أيضًا من دون برنيطة، وأقبح شيء في الضيف رؤية هذه الثياب السود، وقد يحاكي بعضهن نساء الإنكليز في الزي، ولكن متى ذهبن إلى الكنيسة لبسن زيهن الأصلي توهم أن اللون الأسود أليق بالكنيسة وأولى بالقنوت، وهو كوَهْم الجهلة من نصارى الشام أن من يلبس سراويل فوق ثيابه لا يليق به أن يتقدم إلى محراب الكنيسة.

أما أهل القرى فإن الرجال منهم يثقبون آذانهم، ويتقرطون بأقراط من الذهب، ويرخون سوالف مجعدة من أفوادهم إلى طلاهم، وهاتان صفتان من صفات الإناث، ويلبسون طرابيش مختلفة الألوان مسدلة على أكتافهم، وهي شبيهة بالأجرية، ويمشون حفاة، ويتحزمون بأحزمة، ومنهم من يتختم بعدة خواتم من ذهب، ويجعل أزار صدريته منه أو من الفضة، ويحمل سترته على كتفه، ويمشي حافيًّا مشية المفراح البطر، وإن الجرار منهم أو الخمار ونحوهما ليخرج في الأعياد وفي أصابعه عشرة خواتم من الذهب، ومثلها في سلسلة ساعته، وفي صدريته أزرار كثيرة من الذهب أو الفضة، أما النساء فإن من كان لها حذاء لا تلبسه إلا إذا جاءت المدينة وهي معجبة به حتى إذا خرجت منها تأبطته، وجميع الأعيان في مالطة يخرجون في الصيف من دون أردية تستر أدبارهم، خلافًا لعادة الإفرنج في أوروبا، والمتكيس الغيساني منهم هو الذي يزنق سراويله على فخذيه وإليتيه حتى لا يعود يمكنه التقاط شيء من الأرض، فإذا صعد في درج ونحوه استعمل الحيلة حتى لا تنقد من دبر، وأكثرهم يفخِّم فخذيه ومؤخره بحشو في السراويل،

ويستر كل عظم ناتئ في بدنه، ويبدي ما ينبغي أن يستر، فإذا مشى أحدهم على هذه الصفة نظر إلى عطفيه كالزوزك وإلى سراويله وحذائه معجبًا بما لديه، وللنساء زهو وعجب إذا مشين أكثر من زهو الرجال، فترى المرأة تخطو كالعروس المزفوفة إلى بعلها، وهي ممسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى وبطرف غطاء رأسها باليمنى، فتكون على هذه الحالة أشغل من ذات النحيين، فمتى أوين إلى بيوتهن لبسن أخلق ما عندهن من الثياب، وسواء في ذلك الفقراء والأغنياء والرجال والنساء، وهذا هو أحد الأسباب التي حببت إلى المالطيين تجنب المعاشرة والمخالطة، وربما عدت المرأة التي تبقى في منزلها بلباس حسن من المتبرجات، وإذا زرت أحدهم فلا يستحي أن يقول مهلًا فإن زوجتي تبدل ثيابها لتحضر بين يديك، ومنهن من تبقى في بيتها بغير حذاء، ثم إذا خرجت في يوم الأحد لبست جوارب من حرير وكفوفًا منه وتبهرجت غاية ما يمكن، فإن المالطيين يتفخلون في الأعياد كل التفخل بخلاف الإنكليز هنا فإنهم يبقون على حالة واحدة. وفي الجملة فإن هم هؤلاء الناس كله مصروف في التفاخر بالرياش وهو شأن حديث النعمة.

ومتى كانت إحدى نساء مالطة حاملًا مشت الخيلاء، ورفعت بطنها ليراها كل من مر بها، ومتى أبصرت ذا شوهة رسمت شكل الصليب على بطنها تعوذًا من سريان الشوهة إلى الجنين، وإذا شمت في الطريق رائحة طبيخ وتوحمت عليه بعثت تستهدي منه.

أما حلي النساء فالذهب غالبًا للأغنياء والفضة للفقراء، إلا أنه قل أن ترى امرأة من دون حلي من ذهب، وأصناف الحلي الشنوف، ويقولون لها مسالت، وفي لغة أهل الغرب مصالت، والأسورة يلبسنها فوق الأكمام والإبر والخواتم والسلاسل والساعات، ويندر جدًّا تحليهن بالجواهر النفيسة، وإنما تتحلى بها الخواتين في الرقص والولائم وقد يجزي عنها الجزع، وفي الجملة فليس لنساء مالطة ولا لنساء الإفرنج جميعًا كثير من الحلي كما لنساء مصر والشام، وإنما إعجابهن مقصور على نظافة الثياب، واتخاذها بحسب الزي، وكما أن لباس رجال الإفرنج لا يخلو من إخلال بالحياء كذلك كان لباس نسائهم أدعى إلى الحشمة والتصاون من لباس نسائنا.

فأما تغيير الزي عندهم فإنه نافع لأصحاب التجارة ومضر بعامة الناس، فإنه يقضي بمصاريف حديثة غير ضرورية، ومنشأ هذا التغيير يكون في باريس، فتطبع صورته على أوراق، وترسل إلى جميع البلاد، وهذا دأب الناس من أنهم إذا رغبوا عن رذيلة أقبلوا على غيرها، فإن الإفرنج لما رغبوا عن المزركش والمرقش من الثياب وعدوها من دأب الصبيان أولعوا بتغيير الشكل هذا، ولما كان لباس الإفرنج في الشتاء لا يتعدى

اللون الأسود من الجوخ وغيره، وفي الصيف لا يتعدى الثياب البيض لم يكن لأسواقهم ومواسمهم بهجة، وليس ما تسر رؤيته إلا ملابس العسكر وبعض النساء، ولا شك أن حب الألوان الزهية طبيعي؛ لأنا نراه في الأولاد وهم يقولون إن الميل إليه من طبع الهمج، وإنما ميلهم إلى الألوان مقصور على فرش ديارهم وأثاثها، والحق يقال أن ملابس الإفرنج أوفق للعمل وأدعى إلى قلة المصروف، فإنها ما عدا كونها مزنقة وهو أصل في الاقتصاد، فهي عارية عن كلفة الرقم والوشي، وربما كانت أدعى إلى النظافة أيضًا، ومن عادة الإنكليز هنا الإكثار من الثياب البيض، والإقلال من الجوخ ونحوه، فإن الغني منهم لا يكون له أكثر من ثلاث جبات أو أربع، ولكن قد يكون له ستون قميصًا وعشرون سروالًا من الكتان وعشرون ملاءة للفرش، وقس على ذلك، وقد رأيت كثيرًا من الأعيان هنا لهم جبب قد تلبد على أزياقها الوسخ والعرق لا سيما أن منهم لمن يرخى شعر رأسه حتى يصل إلى قذاله، فتراه إذا نزع برنيطته تتطاير هبريته على كتفيه، ومع ذلك فهم يحلقون شواربهم بدعوى النظافة، ومن الإنكليز من يلبس كل يوم قميصًا، ويحلق في كل صباح وربما فعل ذلك في النهار مرتين، وذلك مطرد سواء كانوا في البر أو البحر، ومنهم من يجعل صدر القميص أو طوقه وأطراف كميه منفصلة عنه فيغيرها في كل يوم.

ومما يحمد عند الإفرنج استعمال النشا في الثياب البيض حين تغسل فإنها تأتي بها جديدة، والغسالات في مالطة لا يغسلن إلا بالماء البارد، فإن وضع اليد في الماء السخن ومقابلة الريح بعده يعقب ضررًا، وصابونهم أحسن من صابون فرنسا، ودونهما صابون الإنكليز، وعندي أن أحسن صابون في بلاد أوروبا هو صابون قسطيلية في إسبانيا، والظاهر أنه من صنعة العرب؛ فإن أهل تونس لا يزالون يصنعون شيئًا منه على لونه وهيئته ولكن شتان ما بينهما، وأجرة غسل القميص بمالطة صلدي واحد وفي باريس ثلاثة وفي لندرة أربعة أو خمسة.

أما عادة المالطيين في الأكل: فللموسرين الشوربة في الغداء واللحم والخضر والخمر، وفي العشاء السمك والسلطة، وأفخر شيء عندهم لحم الخنزير؛ إلا إنهم لا يكثرون منه ومن غيره كما يكثرون من أكل الخبز بخلاف عادة الإنكليز، أما الفقراء فإن أحدهم ليأكل رطلًا من الخبز من أرطالهم بخمس حبات من الزيتون أو بقطعة من الجبن أو بصخاة، والرطل المالطي هو نحو رطلين من أرطال مصر وثمنه نحو قرش، ولهذا كان المالطيون جميعًا كثيري اللهج بذكر الخبز، فإذا زارك أحد مثلًا وسألته عن أهله قال

لك كلهم طيبون يأكلون الخبز، أو كأن يقول الطيب هو من يأكل الخبز، وإذا أردت أن تشتري شيئًا من أحد التجار ولم توفه ثمنه قال لك أنا قائم بمؤنة عيلة تأكل الخبز، وإذا رأيت أحدًا يأكل بعيدًا عنك رفع إليك ما في يده وقال «أك يعجبك»؛ أي إن يَكُ يعجبك، وإن كان يعلم أن اقترابك منه محال، ثم لا يخفى أن خبز الإفرنج يكون كبيرًا جاهضًا يقطعونه بالسكين، والحكمة في ذلك الاقتصاد فإن الآكل إذا قطع منه شيئًا وأبقى منه ما أبقى فلا يكون الحرص على الباقي عيبًا، وربما جيء بالفضلة منه إلى المائدة مرات، بخلاف عادة الشرقيين فإن الرغيف إذا قُطع منه شيء فلا يؤتى به إلى السفرة وهو ناقص فذلك يعد لؤمًا وبخلًا، غير أن جعل الرغيف كبيرًا يوجب عدم نضج لبه، فخبز أهل مالطة يكاد لبه وهو الجزء الأكبر منه ينعصر فلا يمكن أكله إلا بعد يوم، وهو أردأ خبز في بلاد الإفرنج، فإنه ما عدا كونه معجونًا بالأرجل حامض وغير مرئ، غير أنه فيما أظن ليس مخلوطًا بأجزاء كثيرة كخبز الإنكليز.

وعندهم نوع من الخبز مستدير مثل خبزنا يسمونه الفطاير، ويأكلونه على نوع التفكه، وقد سألت عن سبب قلته وعدم بيعه في جميع الحوانيت فقالوا: إنه موجب لزيادة المصروف لطيبته، وهم إذا جاعوا أكلوا منه ما يكسر الجوع فقط، وعامة المالطيين يطبخون الدم، ويستبقون إلى أكله، وكنا إذا أردنا أن نذبح دجاجة أخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين، وهم وجميع الإفرنج يأكلون السلاحف البحرية وحيوانات أخر مما نتقزز نحن منه. وقد بلغني أن من المالطيين من إذا فجع بشيء فجأة أكل فأرًا أو ضفدعًا لإزالة الدهشة، وكيف كان فإن أخس الفلاحين بمالطة يعرف من أنواع الطبيخ ما لا يعرفه أكبر تاجر في بلاد الإنكليز، فإنهم يطبخون اللحم مع جميع البقول، والغالب أن الإفرنج لا نظافة لهم في الطبخ من حيث كانت خداماتهم أبدًا مكشوفات الرءوس؛ فيتناثر شعرهن في الطبيخ، ولأنهم قليلًا ما يبيضون آنية الطبخ حتى إن هذه الصنعة في مالطة تكاد أن تعد من المفقود، وأكثر آنية الطبخ عند الإنكليز من الحديد، وهو أسلم عاقبة، وأهل مالطة مثل غيرهم من الإفرنج في كونهم يأكلون المخنوق، وزادوا عليهم في أكلهم الميتة من الدجاج ونحوها، وإذا دعوت أحدًا منهم إلى مأدبة لم يكن منه في خلال التهامه ما بين يديه إلا الثناء على نفسه بأنه قليل الأكل، وعلى ذلك قولي:

لئام إذا ما زرتهم في بيوتهم	كرام إذا زاروك ما أمكن اللحس
ولو وسعت أفواههم غير ما بها	لكان لكل بين أنيابه فأس

وقلت أيضًا:

لجاري ثغر للهم القرى وذم الورى منتهى حده
فلا شيء أسهل من فتحه ولا شيء أصعب من سده

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيئًا، فلا تزال رائحة أفواههم منتشرة.

أما مراقدهم فإنهم يرقدون غالبًا على سرر من حديد، والمتنكلزون منهم يتخذون في الصيف سررًا منه، وفي الشتاء من الخشب، وفرشهم متعددة وثيرة، وقد سمعت أن غير الأغنياء يتخذون فرشًا عالية ولكن لا يرقدون عليها، وإنما ينضدونها للمفاخرة والمباهاة، والأطباء هنا يقولون إن الرقود على فرش القطن مضعف للجسم، وأن حبل الليف أو التبن إذا نفش كان خيرًا منه، وفرش الأغنياء من الصوف.

وعامة المالطيين يجعلون أقذارهم في وعاء تحت السرير فلا طاقة لأحد على أن يدخل مراقدهم في الصباح، ولا بد من أن يرقد الرجل مع زوجته، وإن تقادم عليهما الزواج وهرما فيه وأروحا، فأما الأوباش والسفلة فتراهم راقدين في الهاجرة على حافات الطرق كبًّا على وجوههم، وقد جاء في الحديث نوم الشياطين على وجوههم، وإذا زرت موسرًا منهم بادر إلى أن يريك ما عنده من الفرش والأثاث، وقبل كل شيء يريك فراشه، ولم تجر العادة عندهم أن يتخذوا فرشًا للزائرين كما في بلادنا، ومما حرم منه أهل مالطة من أسباب الترفه والاستراضة الاستواء على الأرائك والزرابي الوثيرة فلا يقعدون إلا على الكراسي، نعم إنهم يتخذون متكآت من خشب، ولكن من دون نمرقة عليها ولا حشية، وناهيك بمن يقعد يومه كله على كرسي خارج منزله، أو يظل واقفًا كالتجار، ثم يأتي منزله ليقعد على كرسي، فكأنما لسان حالهم يقول ما قال أبو نواس:

وداوني بالتي كانت هي الداء

أو ما قال الأعشى:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

أو ما قال ابن دريد في مقصورته:

حينًا هي الداء وأحيانًا بها   من دائها إذا يهيج يشتفي

أو ما قاله البحتري:

تداويت من ليلى بليلى في الهوى   كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

فائدة يحسن استطرادها هنا وهي: «أن مداواة الشيء بنظيره لا بنقيضه ليس من مخترعات أطباء أوروبا كما شاع، فقد ذكر العلامة الدميري في كتاب حياة الحيوان عند ذكر النحل ما نصه؛ روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنهم — قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلًا فسقاه، ثم جاءه فقال: يا رسول الله، إني سقيته عسلًا فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال — عليه السلام — اسقه عسلًا، ثم جاء الثانية والثالثة والرابعة، فقال عليه السلام: اسقه عسلًا، فقال: قد سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال ﷺ اسقه عسلًا صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فبرئ» قال الدميري: «اعلم أنه قد اجتمعت الأطباء في مثل هذا العلاج على أن تترك الطبيعة وفعلها، فإن احتاجت إلى معين على الإسهال أعينت ما دامت القوة باقية وأما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض.» ا.هـ.

أما عادتهم في الزواج: فهو أن يعاشر الرجل المرأة قبل أن يتزوجها مدة طويلة، وربما أقام على ذلك ثلاث سنين فأكثر، وعندي أن الزواج من دون مشاهدة البنت ومعرفة أحوالها من أضر ما يكون، ولا سيما عند النصارى؛ لعدم إباحة الطلاق عندهم، غير أن طول العشرة أيضًا لا خير فيه؛ لأن البنت لا تزال مع خطيبها على أحسن الأخلاق حتى إذا تزوجت وعرفت أن لا فراق تخلقت بالأخلاق التي تعجبها، ولا يخفى أن النساء في بلاد الإفرنج هن اللواتي يمهرن الرجال؛ فالأغنياء من المالطيين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة، والذين هم من الوسط يؤثثون له منزله من فرش وكراسي وموائد وآلات الطبخ وينقدونه شيئًا من الدراهم، والفلاحون يعطونه دجاجًا وبيضًا ونحو ذلك، وعلى الزوج أن يهادي حماه بأحذية، وعندي أن لكل من الغربيين الذين يمهرون الزوج ومن الشرقيين الذين يمهرون المرأة وجهًا، وذلك أن الشرقيين ينهمون على الزواج وهم غير محنكين ولا مادة لهم، فيحتاج أبو البنت إلى أن يأخذ من الزوج مهرًا ثقة بأنه قادر على

القيام بما تعرض له، ولأن الرجال هم قوامون على النساء. أما الإفرنج: فلأن رجالهم غالبًا يتحاشون الزواج لما يعقبه من التكاليف الشاقة؛ لأن مؤنتهم غالية ونساءهم متشبهات بالرجال أخلاقًا، ولاستغنائهم عنه بكثرة المؤاجرات، فوجب على المرأة في هذه الحال أن تساعد الرجل.

وأهل مالطة أشد الخلق تهافتًا على الزواج فإن الرجل منهم ليتزوج وكسبه في اليوم قرشان، وهما لا يشبعانه خبزًا وإدامًا، وإنما يثق بأن زوجته تساعده على الشغل وتكسب مثله، وآفة نسائهم حسن الخلق دون حسن الخلق فإن المرأة تجري وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب، فلا يهمها كون الرجل فقيرًا أو جاهلًا أو شريرًا، غير أن النساء هنا لا يحترمن أزواجهن، فكثيرًا ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفهه بحضرة الناس، وكلهن إذا تكلمن يرفعن أصواتهن إلى حد يبقى الغريب عنده مبهوتًا، وكانت عادتهن في القديم أن لا يتبرجن للشبان، ولا يخطرن في الطرق، ولا يتعلمن القراءة والكتابة، ومتى خُطبن احتجبن عن الأخطاب، وربما كان الرجل يخطب بنتًا بواسطة أمه وأخته من دون أن يراها، أما الآن فقد تخلقن بأخلاق نساء الإنكليز في مخالطة الرجال ومماشاتهم والذهاب معهم إلى المراقص والملاهي، وكثيرًا ما تهرب البنت من حجر والديها، وتمكث مع من تهوى، وكثير من النساء الغنيات الطاعنات في السن يتزوجن الفتيان البطالين فيمكث الرجل مع زوجته طاعمًا كاسيًّا، والذي عليه حكمة النساء هنا إيثار الأقارب على الزوج فإنهن يقلن إن الزوج إذا مات يعوض بمثله ولا كذلك الأقارب، وهن كنساء الإنكليز في أنهن لا يتزوجن إلا من كان في سنهن، إلا أنهن يخالفنهن في كونهن يتزوجن على صغر، وإذا مشى الرجل مع زوجته مشيًا متحاذيين لا متماسكين بالأذرع كالإفرنج؛ إذ لا بد للمرأة أن تمسك ثيابها كما ذكرنا آنفًا، وكثيرًا ما تخرج الرجال وحدهم ويغادرون نساءهم في البيوت.

وأكثر أهل الحانات بمالطة متزوج، واللبيب منهم من يتزوج حسناء لتسقي الشرب وتنادمهم، فيجتمع عندها من العساكر البحرية والبرية زمر شتى، والفجار من أهل مالطة الذين دأبهم كسب المال بأي وجه كان؛ يتظاهرون بأنهم طالبون للإحصان حتى إذا حصلوا على المهر فروا به إلى البلاد البعيدة، ثم إن المتعة أو التسري أمر مستفيض عند جميع أهل مالطة، وقد تترك المرأة المتزوجة بعلها وتهوي في أثر من تهوى، وكذا الرجال، وأعرف كثيرًا من العيال قد فارق منهم الزوج زوجته وأقام مع أخرى وأقامت هي مع آخر، وتسرى أبوه بنساء، وأقامت بناته مع رجال أو صرن بغايا، والبغايا في هذه

الجزيرة لسن ذوات ثروة ولا جمال رائع إلا ما ندر، فلا تجد لإحداهن دارًا على حدتها أو خادمًا، لكنهن في الغالب غير وقحات ولا متهافتات على الرجال، بل هن لعمري أصون لسانًا من المتزوجات وأكثر ماء وجه؛ إذ لا يحدقن في الرجال كالمتزوجات، ولا ينتقدن السحنة والزي، ولا يتشبثن مثلهن بالنميمة، ويترددن على الكنائس كثيرًا، وليس منهن من تريد أن تموت في الذنوب كما هي عبارتهن، وحين يأتين الفاحشة يغطين وجوه صور القديسين التي في حجرهن أو يقلبنها تأدبًا وتورعًا، وفي الجملة فإن أهل مالطة جميعًا رجالًا ونساءً يغلب عليهم الشبق والسفاح.

أما عادتهم في آداب الجنازة فكعادة الإفرنج في أنهم لا يقيمون المآتم على الميت، فلا تعرف أن أحدًا من الأهلين مات إلا من صحف الأخبار، وهي عادة حميدة، فإن العويل والنحيب فضلًا عن كونهما لا يحييان مائتًا ولا يردان فائتًا أو كما قال الشاعر:

ولم يرجع الموتى حنين المآتم

يلقيان الهم والرعب في قلوب السامعين، وإنما يلبسون الحداد على الميت مدة طويلة، ويدفنونه بعد أربع وعشرين ساعة، وربما أرسلت الجيران إلى أهل الميت وضيمة كما في بر الشام. أما علية الإنكليز هنا فلا يدفنون الميت إلا بعد أسبوع في الأقل كما في بلادهم، وإذا مات لأحد المالطيين طفل صغير أقبلت عليه الأصحاب تهنئه قائلين نفرح لك بالجنة، ومتى ولد لهم ولد وضعوا تحته التبن؛ ليكون سقوطه عليه تشبيهًا بالمسيح، وإذا مات أحد من ضباط العساكر شيعت جنازته وآلات الموسيقى معزوف بها وراءها والجند مصاحبة لها، فإذا فرغوا من دفن الميت أطلقوا البنادق دفعة واحدة إشارة إلى أنه مات بعز دولته وسلطانه.

أما خلق المالطيين فالغالب عليهم السمرة، والربعية في القوام، وسواد الشعر والعيون، وغلظ الحواجب، وشدة البنية، وهم في الغالب أجمل من النساء، وكثير من النساء هنا لهن شوارب أو عوارض أو عنافق، ومنهن من تحلقها، ومن الإفرنج من يستحب ذلك فيهن، وقد أسلفت لك زهوهن وعجبهن بما يتحلين به من اللباس والحلي.

أما أخلاقهم فالغالب على أعيانهم لين الجانب والبشاشة، فإذا سألت أحدًا منهم عن شيء أجابك وهو باش بك مستأنس إليك، ومن طبعهم جميعًا الكدح والتدبير والاقتصاد، فلا يتحملون ضنك العيش محافظة على عادات قديمة ضارة، ولا يتجشم أحدهم استخدام نفر أظهر لشأنه ورفعته ولا النفقات الزائدة في الأعياد والزواج، ولا تتقلد نساء

الأغنياء منهم قلائد من الألماس وغيره، وأن الماجد منهم يزور صاحبه بدون احتفال، والغني يذهب إلى السوق صباحًا ويشتري مؤنة يومه، وأن الماجدة تزور صاحبتها ولا تلهي إحداهما عن الشغل، وذلك بأن تأخذ معها شيئًا تشتغل به، وهي التي تقوم بتدبير البيت فلا تكل أموره إلى الخادمة، وأكبرهم من عنده خادم وخادمة، وقد شاهدت رئيس أطباء المستشفى غير مرة ينصب الحبال على سطحه، وينشر عليها الثياب المغسولة قطعة قطعة، ومتى نشفت الثياب حلوا الحبال، ووضعوها في محل مصون، ورأيت أيضًا بعض القناصل ينصب رايته بيده، والفقراء منهم لا يوقدون سراجًا في الليالي المقمرة، وأكثر الرجال يسلمون مصروفهم ليد نسائهم حتى إنهم يحتاجون بعدها إلى أن يطلبوا منهن ثمن التبغ ونحوه، وجميع نسائهم مقتصدات ونشيطات إلى العمل، وقل منهن من تتعاطى التجارة.

ومن طبعهم جملة وتفصيلًا الفضول والتلهي بالإسفاف من القول والعمل، فإذا أكب أحد مثلًا لالتقاط شيء من الأرض ازدحمت عليه زمر، ولا يزال أحدهم يجري من جهة وآخر من أخرى حتى تغص بهم الطريق ولا يبرحون ذاكرين للشيء يحدث أيامًا حتى يجد غيره، ومتى جرى أمر عرفت أصله ومبدأه وغايته من الجائين والذاهبين، ولا بد لكل من طغامهم أن يقص قبل رقوده كل ما جرى له أثناء النهار، وربما أخبر به غير مرة، وزوَّر ورقش حتى يخال نفسه بعد ذلك صادقًا، وأن يتطلع وهو سائر في الطريق إلى كل من يمر به فتراه كأنما يسلم على الناس ذات اليمين وذات الشمال، وكثير منهم دأبهم الحضور في المحكمة لاستماع الدعاوى، فإذا خرجوا بثوها في كل موضع، ولا يمكن أن ينقلوا حديثًا إلا ويزيدون فيه؛ فإذا ألم بعين إنسان قذى قال: إنه عمي، ويبدهون الرجل بأن يقولوا له قد رأينا زوجتك تنظر من الشباك أو تحدث فلانًا أو فلانة، ويقولون للمرأة في حق زوجها مثل ذلك، وإذا اشتريت من أحدهم شيئًا يخبر أهلك به، ومتى رأوا غريبًا نظروا إليه متفرسين، وتنصتوا لاستماع كلامه؛ ليعرفوا بأية لغة يتكلم، ويصفون حاله في وجهه بأن يقول أحدهم للآخر: «هذا الرجل من بلد كذا، وقد أطال المكث هنا، ولعله لا يمكث بعد، فإنه كان أولًا سليمًا، وكأنه الآن مريض»، فيقول الآخر: «وإلى أين يذهب أعساه يجد بلدًا خيرًا من بلدنا وقد صار مقصد الواردين والصادرين»، وربما دعت إحدى النساء صواحبتها لرؤيته وهي تلكزها وتومي إليه، ولا تكاد تخاطب أحدًا في الطريق ألا وترى زمرة قد أحدقت بك، ولا يكاد أحد يأتي أمرًا إلا وتتناقله الرواة، ويسيئون الظن في متزوج عاشر عزبًا أو في عزب دخل دار متزوج، ولا

غرو فإن هذا شأن من لا يرى في بلده شيئًا يشغل الخاطر من الأمور الخطيرة، ويكون محصورًا في صخرة قرعاء راسبة في البحر، فإن حصر الفطن يكون من حصر العطن.

ومن طبعهم التكشف وبث ما هم فيه من الأحوال، والاستقصاء عن حال المخاطب، فإذا صحبت منهم أحدًا لا يلبث أن يطلعك على كمية دخله وخرجه، وكيفية عمله، ويقول ليت لي مالًا فأتنعم به، ولو كنت من المثرين لأكلت أطايب المأكول، ولبست أفخر الملبوس، فيا سعد من عاش عيش المترفهين فأخبرني أنت ما دخلك، وكيف عيشك، ومن أين تشتري ثيابك وحاجتك، ومن يزورك … وهلم جرا.

فأما حبهم لكسب المال فهو بحيث لم يغادر لشيء سواه قيمة، ومنهم من يسافر إلى البلاد الشاسعة ويعرِّض نفسه للامتهان والابتذال حتى إذا أحرز المال رجع إلى وطنه متبذخًا متشبعًا، يمرح في الأسواق مرح من ازدهته النعمة وأبطره الحظ. ولا شيء يعجبهم في الدنيا مثل بلادهم، ولا تزال تسمعهم يتبجحون بها وبأحوالها، وإذا سألت أحدًا منهم عنها أجابك بلسان ذلق عما كانت عليه من الغبطة والسعادة، وآلت إليه من سوء الحظ، وهم في محبتها كاليهود في محبة صهيون، ومن الغريب مع هذا التفاخر أنك إذا ذكرت لأحدهم أفراد قومه لم تلقه راضيًّا عن أحد منهم، فأول نعت ينعته به قوله هو أبله أو شحيح، فكأن قوله نحن المالطيين شأننا كذا يريد به وحدة نفسه.

أما مفاخرتهم بالألقاب فأكسى لهم من اللباس، فقلَّ أن ترى أحدًا منهم ممن يقرأ ويكتب إلا وله لقب طبيب أو فقيه أو بارون أو مركيز أو دكطور، على أنهم لا يملكون به مسكة من العيش، ومن طبعهم التعقب للزلات والتعنت والاغتياب، فيتعقبون الناس في مشيتهم ولبستهم ولهجتهم وسحنتهم فلا يكاد يعجبهم شيء، وما من خصلة حميدة إلا ويجعلونها قبيحة، فإذا كان الإنسان كريمًا قالوا إنه مبذر، وإن كان مقتصدًا قالوا إنه شحيح، ولا يبرحون مبربرين على الإنكليز ومتظلمين منهم، ويدَّعون بأنهم من بعد قدومهم إلى جزيرتهم ضاقت عليهم مذاهب المعيشة وغلت الأسعار حتى اضطروا إلى أن يهاجروا من بلادهم التي يصفونها بأنها حنينة، مع أن لدولة الإنكليز في هذه الجزيرة عدة سفائن حربية نفقة كل منها في اليوم نحو مائتي ليرة، وترى عساكرها لا يبرحون يخرجون من حانة ويدخلون أخرى حتى ينفقوا آخر فلس معهم حتى صار معلومًا عند الجميع أن الأسعار إنما تغلو بوجود هذه السفن، ثم إذا سافرت أخذ الذين ألفوا البيع لها في الدمدمة والتسخط من كساد ما عندهم، فإن الأهلين كلهم لا ينفقون ما تنفق سفينة واحدة منها.

هذا، وإن الإنكليز قد أنشأوا فيها جملة مصالح ومعالم لم تكن للمالطيين في حسبان، فقد كان بعض أصحابي بالإسكندرية كلفني بأن أسأل ناظر الديوان عن تركة والده وقد توفي بمالطة، وهل كان تحت حماية الإنكليز أو لا، فلما سألته أجابني بعد البحث بأن ديوان مالطة قبل قدوم الإنكليز لم يكن له دفاتر مصححة يُرجع إليها، وإنما كانت عبارة عن أوراق يومية غير منظومة.

على أن المالطيين أنفسهم يقرون بأن حكامهم في القديم كانوا ينالون من عرضهم؛ لأنهم كانوا قد حُرموا الزواج على أنفسهم حتى إنه تجمع في دار معدة للنغول نحو ألف ولد يزن في كونهم أولادهم، فكانوا يقولون فيهم إنهم عل قسيسين، يورون بذلك أن الحكام المتشبهين بالقسيسين يكفلونهم لكونهم آباءهم، أو أن الأولاد يصيرون قسيسين، ولكن دأب أهل الجهالة أن يستطيبوا الماضي على الحاضر، ويطمعوا في أن الآتي يكون خيرًا منهما، ومن ذلك كراهيتهم للغرباء ولا سيما العرب، ولن يقدر أحد أن يستخلص منهم عشيرًا، وما يكون له بين ظهرانيهم صديق إلا إذا كان يربي جرو كلب، ولعمري لو أن مالطيًّا افترى على غريب وخاصمه؛ لتألبوا على الغريب من كل أوب من دون أن يعلموا السبب، وهم مائلون بالطبع إلى البطش والفتك، وأن كثيرًا منهم لا يمشون إلا ومعهم سكاكين يخفونها في ثيابهم، ومدخل العتاب بينهم مسدود، فأول سبهم قولهم يحرق دين القديس تبعك، ومن جهلهم أنهم لا يفهمون ما المراد بالدين هنا فإن مرادفه عندهم في غير السب منقول من الطلياني، والظاهر أن المسلمين حين ولايتهم عليهم كانوا يتلقونهم بهذه التحية، فتداولوها هم من بعدهم، ومنهم قوم يتنصتون إلى ما يجري بين المرء وصاحبه أو زوجته من الحديث فإذا صح لهم جر منفعة من ذلك انتهزوا فرصتها فورًا، واختلقوا عليه أكذوبة، وللمالطيين جميعًا لهجة واحدة وإشارات واحدة، فالرجال إذا وقفوا يهزون أفخاذهم من الورك إلى القدم، وإذا وصفوا أحدًا بالنحول رفعوا السبابة، وأمالوها يمينًا وشمالًا، وإذا أشاروا إلى أمر معتدل سوي رفعوا الكف اليمنى ورجفوها، وإذا أرادوا الكثرة ضموا الأصابع على الإبهام وحركوها عليه، وإذا أرادوا النفي أمروا الأنامل من تحت الذقن، وإذا أشاروا إلى حسن امرأة جمعوا الكف وأمروها على الصدغ إشارة إلى تجعيد سوالفها، وإذا أرادوا وصف شيء بالطيبة أرخوا اليد اليمنى ونفضوها مرات، وإذا سألوا الرجل عن زوجته قالوا له: كيف المرة، وإذا زار أحدهم صاحبه فأول ما يحيي به صاحب المنزل ويجعل تحية الست الأخيرة، وإذا ذكروا اسم ولد صغير ذكروا اسم الله عليه، وإذا أوقدوا المصباح في المساء قالوا تحية

المساء، والفلاحون لا يصرحون بعدد سني سنهم فيقولون مثلًا أربعون وعشرة، ولعل ذلك واصل إليهم من اليهود فإن العدد عندهم فيما أعلمه مكروه.

ومن العجب هنا أن الناس يحبون التكاثر في كل شيء حتى في القبائح والرذائل إلا في العمر، ولا يتحاشى أحدهم إذا زارك أن يجيء معه بواحد أو اثنين جريًا على عادة العرب، ويبادرون إلى تهنئة النفساء حال وضعها، وتزدحم عليها الجيرة حتى العذارى، وتأتي أصحاب الآلات ويعزفون أمام البيت وهي آخذة في الطلق، ويزأطون عندها كما يزأطون في الأعراس.

أما تحمسهم في الديانة ففوق تحمس أهل أرلاند، وقد مر بك عدد الكنائس والقسيسين، وثروتهم وملابسهم الكنائسية، وكما أن أهل أرلاند يسكرون ويفحشون في عيد صان باطرك كذلك المالطيون يسكرون ويفحشون في عيد صان باولو، بل في سائر الأعياد، وإذا استأجر مالطي دارًا كان قد سكنها يهودي فلا يدخلها إلا إذا رش عليها القسيس الماء المبارك، وكذلك لو انتقل مثلًا مركب ونحوه من ملك مسلم أو إنكليزي إلى ملك أحدهم فلا بد وأن يعمده، وهم يعمدون أيضًا أجراس الكنيسة جميعها، وكذا الأجراس الصغيرة التي ينقس بها أمام القربان، ويقيمون لها كفلاء من الرجال والنساء، مما عرف بالأشابين، وقد عمدوا مرة جرسًا في كنيسة صان باولو، وكان كفيله الحاكم وزوجته؛ لكونه كان كاثوليكيًّا، ويقولون إن دعوة الجرس مستجابة، فأول ما يحدث رعد أو برق يبادرون إلى الضرب به، ويعمدون المولود من أول يوم ولادته ولو كانت في شدة الزمهرير، ولا بد من أن يكون ذلك في الكنيسة لا في البيوت، ومن يقف ينظر إلى القربان وهم طائفون به من دون أن يسجد له، فقد عرض نفسه للخطر، وقيل: إنهم قتلوا مرة رجلًا من بحرية الإنكليز، وكان قد مر بهم ولم يسجد له، فتناولوه ضربًا ووخزًا فحمل قتيلًا، ومرة أخرى وقف بهم أحد ضباط العسكر، وظل واقفًا فهجم عليه قسيس ورمى بغطاء رأسه فشكاه للحاكم، فأخبر الحاكم الأسقف بذلك فحبس القسيس في داره مدة ثم أطلقه، فذهب القسيس إلى رومية فأكرمه البابا وأعاده إلى الأسقف وأمره بإعلاء درجته، فلما بلغ الحاكم ذلك نفاه من البلد، ويقولون إن شكل الصليب مخلوق في جثة كل إنسان، وذلك بأن يبسط يديه وهو رافع رأسه، وأن اسم مريم العذراء مرسوم أيضًا في كل كف فإن خطوط الكف الأصلية تشبه حرف الميم باللاتينية، ونحو من هذا ما وجدت في بعض الكتب العربية من أن اسم النبي ﷺ مكتوب في كل جثة؛ فإن الميم تشبه الرأس، والحاء تشبه الصدر، والميم تشبه السرة، والدال تشبه الساق، وفي

أيام الصيام وفي يومي الأربعاء والسبت لا تصرح باعة الحليب باسم ما يبيعونه، وإنما يقولون: هون تا الأبيض، ولفظة تا محرفة عن متاع بمعنى صاحب، كما يستعملها أهل تونس وطرابلس، وفي غير هذه الأيام يقولون حليب، ومع شدة تحمسهم هذا فإنهم يبيعون ويشترون أيام الآحاد والأعياد كما في غيرها، والمتدين منهم من يفتح فيها دكانه إلى الظهر فقط، وقد رأيت كثيرًا من مدن إيطاليا، ولم أر فيها تماثيل عديدة في الطريق كما يرى في مدينة فالتة، وقد كانت هذه التماثيل في الزمن القديم ملاذًا يعتصم به أهل الجنايات، فكان القاتل إذا فر ولطئ تحت تمثال منها ينجو من قصاص الشرع، وقد بطلت الآن هذه العادة، وينبغي هنا أن نذكر أن المالطيين يأنفون من أن يطلقوا اسم النصارى على الإنكليز، وإذا تزوج إنكليزي مالطية على يد قسيس إنكليزي فإن زواجه غير شرعي.

فصل في الإنكليز وحكومتهم بمالطة

لما كانت هذه الصخرة البحرية عزيزة على الإنكليز لموقعها في بحر الروم كما لا يخفى، كان لهم في حكومتهم بها من التساهل والتسامح ما ليس في بلادهم، ويمكن أن يقال إن الحكم هنا مالطي وإن يكن الحاكم إنكليزيًّا فإن القضاة وفقهاء الشرع وكتاب الصكوك والمتوظفين في الدواوين وشرطة الديوان جميعهم مالطيون، وليس على الناس مكس ولا ضريبة، ولا يدفع مكس في الكمرك إلا على الحنطة والمسكرات والبهائم وهو قليل جدًّا.

ومن اقتنى مركبًا أو خيلًا أو استخدم خدمة فلا يؤدي على ذلك شيئًا، وكذا الذين يبيعون بقول الأرض وثمرها، وليس لخزنة الدولة من إيراد هذه الجزيرة، ولا فلس واحد، وإنما يصرف جميعه في لوازمها، وجملته تبلغ تقريبًا ١٠٤٢٠٠ وتفصيلها من ديوان الكمرك نحو ٦٥٧٠٠ ومن الدكاكين ١٦٠٠ ومن المحاكم ٢٧٠٠، ومن بوسطة المكاتيب ١٨٠، ومن تقييد الصكوك ١٣٠، ومن خراج الأرض ٢٣٧٠٠، ومن المزاد ٢٠٠، ومن الكرنتينة ٣٣٥٠، ومن المراكب ٣٩٠٠، ومن مصالح أخر ١٧٠٠. يصرف منها مرتب وظائف وسنويات ٤٣٠٠٠ منها ٥٠٠٠ للحاكم ولحديقته ٤٠٠، ولكاتب سره وهو من الإنكليز ١٠٠٠، وللكاتب الثاني ٥٠٠، ولناظر الخزنة ٣٥٠، ولمدير الحسابات ٦٠٠، ولمستوفي الأموال ٥٠٠، ولناظر الكمرك مثلها، ولكبير القضاة ٦٠٠، ولكبير الشرطة ٤٥٠، ولناظر المرسى ٤٠٠، ولناظر الكرنتينة ٣٠٠، ولقسيس الحاكم ٥٠٠، ولأسقف مالطة ٢٠٠٠، وللمصروف على المستشفيات وغيرها من الأفعال الخيرية ٤٤٠٠، وعلى المدرسة الجامعة وقد تقدم ذكرها ٢٧٠٠، وعلى المرتزقين والمتقاعدين ١٣٢٥٠. أما مصاريف عسكر الإنكليز، وهم ثلاث كتائب، فمن خزنة الدولة، وللعسكري في اليوم نحو شلين، ويقال إن إيراد مالطة منقسم إلى ثلاثة أثلاث؛ الثلث الأول: للميري، والثاني: للكنائس من الوقف والتسبيل، والثالث: لأصحاب الأملاك.

فقد تبين لك رفق دولة الإنكليز بحال المالطيين جير، ولو أن جزيرتهم كانت أكبر مما هي الآن بمائة مرة لما كان إيرادها كله مكافئًا لمكس صنف واحد في إنكلترة، وحسبك أن مكس الملط وحده هناك ينيف على خمسة ملايين ليرة، ومن تساهلهم معهم أنهم يرخصون لهم في التطواف بالقربان، وتماثيل القديسين سواء كانت من خشب أو جص أو غير ذلك مع أنه مغاير لعقائد كنيسة الإنكليز لا بل يطوف معهم جوقة من العسكر وهم عازفون بآلات الطرب أمام التمثال، ولا غرو فإن الدولة فرضت لصنم في بلاد الهند اسمه جوجرنوت ٥٦٠٠٠ روبية، وهي عبارة عن ٢٦٠٠٠ ريال، ولغيره أيضًا من الأصنام مرتب وافر ولكهان الهنود وظائف يرتزقونها من الديوان في كل عام.

قيل: ويوجد في الهند نحو ١٤٨٥١ محلًّا مخصصًا لعبادة الهنود، يبلغ مصروفها من طرف الدولة المذكورة نحو ٣٥٠٠٠ ليرة، وقد صُرف مرة على إقامة عيد من أعيادهم ٤٠٠٠٠ روبية مما لزم لهيكل الصنم، وفي هذه الأعياد الكبار تطلق المدافع من السفن والقلاع، ويمشي أمام الصنم طائفة العازفين من الجيش.

وفي عيد إلقاء جوز الكوكو في نهر الهند ينزل ذووا الأمر والحكم من الدولة، ويأخذونه من الكهنة بعد أن يُصلى عليه، ثم يلقونه في النهر، وحينئذ تنشر السفن راياتها المتلونة، وتطلق المدافع منها ومن الأبراج، وكذلك يفعلون في الأهلة إظهارًا لشعائر الإسلام، وكل ذلك دليل على أن الدولة لا تبالي بمباينة المذاهب والأديان في ممالكها، إذا كانت هذه الأديان غير مانعة من أداء ما يلزم أداؤه للخزنة من المال وللتاج من الطاعة، وقد حاول مرة حاكم مالطة، وكان على مذهب البروتستانط، أن يبطل عادة المسخرة يوم الأحد في المرفع على ما تقدم ذكره، فإن الإنكليز يحترمون هذا اليوم غاية الاحترام كما ستعرفه، وإذا بالمالطيين جميعهم تألبوا عليه، وماجوا يطوفون وهم يسبونه، ويقبحون عليه بألقاب سمجة وإشارات منكرة، حتى إن بعضهم حاكاه في زيه وهيئته، وجعل على رأسه قرونًا، ثم أحدقوا بكنيسة الإنكليز وهم عاكفون على العبادة، وزاد ضجيجهم ولغطهم هناك حتى لم يسَع الحاكم وحشمه غير الفرار إلى حديقته خارج المدينة، وما زالوا مذ ذلك الحين يلحفون في طلب حاكم من مذهبهم حتى صدر أمر من الدولة بعزل الحاكم المذكور، فجاءهم حاكم من أهل أرلاند أكثر تحمسًا منهم، وهو الذي وقف شاهدًا على معمودية الجرس.

ومن سنن الإنكليز في بلادهم أن تغلق جميع الحوانيت في يوم الأحد إلا دكاكين العقاقرية والحانات التي تباع فيها الجعة والشراب، إلا أن هذه تغلق أيضًا عند إقامة

الصلاة، فأما في مالطة فلا حرج على أحد منهم أن يبيع ويشتري فيه أي شيء كان، ثم إني لست ممن يتصدون إلى تبديل القوانين والأحكام، ولا ممن يتحرشون بالحكام مخافة أن يعزلوني عن ولاية قلمي، ولا يتأتى لرجل مثلي أن يصلح شريعة دولة قديمة ولا سيما شريعة الإنكليز، فإنها عندهم لا تقبل التبديل ولا التحريف، وكل عادة من عاداتهم تقوم مقام سُنة، إلا أن بيداء أصولهم وأحكامهم تظهر لبصري الكليل القاصر في غاية البعد عن الإدراك، أما أولًا؛ فلأن قصاص كثير من الإساءات والجنايات يفتدى عندهم بغرامة الميري، فإذا افترى مثلًا لئيم على كريم ولطمه بحضرة الناس أو هتر عرضه غرم شيئًا من الدراهم للخزنة وخرج من بين يدي القاضي على أشر خلق مما كان عليه، فتكون مصلحة الحكام على هذا ازدياد الخصام والشر بين الناس؛ لأن خيرهم إنما هو من شر الطغام، فيا ليت شعري ما نفع الكريم بعد أن يُسب ويفترى عليه أن يرى غريمه مؤديًا للميري ثمن عرضه وشرفه، وكيف تصح التسوية بين العباد والله تعالى لم يسوِّ بينهم، بل فضل بعضهم على بعض فجعل اللئام يبذلون ماء وجوههم، ويمتهنون أنفسهم في تحصيل معيشتهم، وجعل ذوي الأدب والعرض ينزهون أنفسهم عن الشين والمنكر، فهل من العدل أن لا يجعل بينهما فرق في الأحكام والمعاملة، وإلا لزم أن نقول إن من يساوي بينهما وهو الحاكم ينبغي أن يكون مساويًا لمن فرض عليه الحكم.

فلو تعمد رجل مثلًا للطم الحاكم على وجهه وهو جالس على كرسي الحكم، أفعساه كان يغرم دريهمات لخزنة الدولة، وهل من العدل أن ترى لئيمًا ينازع كريمًا على شيء هو أدنى من أن يخطر بباله، نعم تصح التسوية بين غريمين تجهل حالهما، فأما الحاكم الشرعي الذي يعرف أهل بلاده، ويخبر فاضلهم من مفضولهم، فلا ينبغي له أن يسوي بين كل مدعٍ ومدعى عليه، كما أنه لا ينبغي أن يوزن الذهب في ميزان الخشب، وفضلًا عن ذلك فإن من ضرب مثلًا مرة لا يصح أن يجري عليه حكم من دأبه وديدنه الضرب، وإلا لزم أن نقول إن أهل اللغة أعقل وأحكم من أهل الشرع حيث فرقوا بين الضارب والضراب والضروب. هذا ولما كان الظاهر من حكم الإنكليز أنه مبني على التسوية كانت الأوباش من أهل مالطة مثل أهل الفضل منهم في أنه لا يقبل للفاضل كلام على المفضول، ولا يفصل بين اللئيم والكريم منهم غير الشهود، وإن كان اللئيم معروفًا بلؤمه ورذائله، وربما طلبت باعة المأكولات في شيء قيمته درهم؛ عشرة دراهم، فلا يمكن للمشتري أن يعارضهم بشيء، وإذا أبى أن يشتري لم يخلُ من تطاول البائع عليه، وقس على ذلك أصحاب القوارب والحمالين وغيرهم من السفلة.

فأي إنصاف هنا أن يرخص لهؤلاء في هذا التعدي والطغيان، ثم يقال إن ذلك تسوية، ثم أي إنصاف أن يرخص للباعة في أن يخلطوا الموائع، وأن يضعوا السمك واللحم الذي نشم في الخموم في الثلج حتى يتطرى، وفي أن يبيعوا الفج من الأثمار، وأن يجعلوا سعر الشيء الواحد متفاوتًا على قدر تفاوت الساعات، وأن تطوف السكارى في الأسواق ضاجين زائطين بالغناء واللغط، ثم يقال إن ذلك حرية، لعمري إن فلق المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية؛ لأن الحرية إنما تكون حميدة مفيدة ما إذا روعي فيها مصلحة عمومية على أخرى خصوصية لا بالعكس، فتبًّا لحرية تفضى إلى تسويد اللئيم على الكريم، وهذا الفساد الحاصل في البيع والشراء في مالطة هو بعينه في لندرة كما سنذكره في محله، وسببه أنه لما كان ذووا الأحكام هنا وهناك لا يأكلون سوى أطيب المأكول ولا يشربون سوى أفخر المشروب غفلوا عن مصلحة الجمهور، وظنوا أن سمنهم موجب لصحة جميع عباد الله، ومن فساد الأحكام هنا أيضًا أنه إذا كان لأحد حق على آخر وأراد سجنه لزمه أن يقوم بمؤنته، وإن يكون المديون لصًّا أو متعديًّا وكان المحق عادلًا فاضلًا، ولا يخفى أن في ذلك حظرًا للثقة والائتمان؛ لأن حبس الغريم لا ينفع الدائن شيئًا، وأن السجن لكثير من الأشقياء المناحيس خير لهم من خصاصهم، ولما كان هؤلاء السفلة مفرطين في القبائح والشرور على ما ذكرنا كان من أهم الأشياء على الحر أن يتجنبهم ما أمكن، وليس عليه أن يحترز من الأعيان وذوي الأمر والنهي، فإنهم لا يتطاولون على أحد لما يعلمون من قضية التسوية، بخلاف العادة في البلاد الشرقية فإن أصحاب المناصب هم الذين يخشى بأسهم وشرهم.

ومن فساد الأحكام أيضًا: أن القضاة تقبل شهادة أي شاهد كان سواء كان سكيرًا أو شريرًا، وكذا شهادة النساء والأولاد مقبولة، فمتى قبَّل الشاهد الصليب مضت شهادته، والإنكليز يحلفون على الإنجيل، ومتى أقيمت دعوى حشد الناس لاستماعها وإن تكن من الأمور التي كتمها أولى من إذاعتها وهنا أيضًا أنكر التسوية؛ لأنه إذا حدث مثلًا أمر مرة بين والد وولده أو رجل وامرأته وكانوا من ذوي الفضل، وأفضى ذلك إلى التحاكم لا ينبغي أن يجعل بمنزلة دعوى رجل على آخر بأنه سرقه أو شتمه، ثم إن من الأصول المقررة عند الإنكليز أن كل من يدخل أرضًا تحت حكومتهم يصير حرًّا وتجرى عليه أحكامهم، وقد جاء مالطة كثير ممن كان لهم عبيد وإماء فأجبروا على تحرير رقيقهم، ومن يقم خمس عشرة سنة ويعلم أنه كان في خلال ذلك حسن التصرف والسلوك حق له أن يطلب الحماية الجنسية، ولكن يلزمه أداء نحو عشرين ليرة، وهذه الحماية هي أنفع من حماية الإنكليز التي تعطى من بلادهم كما سنبين ذلك.

وللحاكم عشرة مشيرين من أعيان الأهلين، يشاورهم في المصالح العائدة إلى بلادهم، وفي كل خمس سنين يُعزل، وربما أقام أكثر إذا طلبت الرعية ذلك، وفي قصره ستة عشر ألف بندقية وعشرون ألف مزراق وأربعة آلاف درع وألفا طبنجة.

أما أخلاق الإنكليز هنا فهي مغايرة لأخلاق جنسهم في بلادهم، فلا يصح لمن رآهم أن يحكم بأن جميع الإنكليز مثلهم، فإن هؤلاء متكبرون صلفون مع البخل والشح، وبئس الكبر والشح إذا اجتمعا، وما أحد منهم إلا ويظن بأنه هو فاتح هذه الجزيرة ببأسه وسيفه، ولا سيما ضباط العسكر، فإنهم على قنة الصلف والتبذخ، وإذا دخلت على أحد من هؤلاء الفاتحين وهو يأكل فلا يتكلف أن يدعوك إلى طعامه، بل ربما غضب على جميع أهل داره على عدم منعهم إياك من الدخول، كما قلت:

إذا زرت أرحبهم دارة	توهم غولًا قد اغتالها
يغلق أبوابه إن نوى	فطورًا ويحكم أقفالها
ومن كان فيهم له خادم	يظن المعالي قد طالها
إذا تـتـبـوأ كـرسـيـه	وبثك من زوجه حالها
يرى أنه محسن مفضل	وأن المآثر قد نالها

وإذا زرته وأقمت عنده إلى وقت غدائه وأردت الذهاب فلا يدعوك إلى الطعام معه، ومن طبعهم حب الانفراد والعزلة، فإن أحدهم ربما أقام شهرًا تامًّا من دون مشاهدة الناس استغناء عنهم برؤية ما عنده من فاخر المتاع وبقراءة صحف الأخبار، أما عندنا فالأخبار لا تعرف إلا بالنقل والرواية، فلم يكن لنا بد من الاجتماع ليلًا، ومن سوء أدب بعضهم هنا أنهم يجعلون في أعناقهم شريطة فيها زجاجة، فكلما لمحوا امرأة فزعوا إلى الزجاجة؛ ليستثبتوها بها، وفي ليالي الرقص عندهم ترقص بنت الرجل منهم مع عدة زِيَرة، وهو ناظر إلى ذلك بعين شكرى من الابتهاج ولا سيما حين يخاصرونها، وكما أن الرجال هنا ليسوا براموز حسن على أهل إنكلترة كذلك كانت النساء مخالفات لمن في بلادهن، فإنهن هنا بمعزل عن الحسن والجمال، وأكثرهن فقم وشوه، ومن الغريب أنه مع ترفههن وركوبهن الخيل في كل يوم غالبًا فلسن يرى فيهن بادنة، ولا فضيلة لهن إلا في كونهن يحسن القراءة والكتابة، ويؤسسن العلم في أولادهن على صغر، فإن الولد لا يبلغ هنا خمس سنين إلا ويكون قادرًا على القراءة، أما عندنا فيذهب سن الصبا باطلًا، فمتى أخذ بعد ذلك في التعلم وجده بعيد المأخذ صعب المرتقى، وأشهد لو أن نساء بلادنا

يترشحن في المعارف على صغر لفضلن نساء جميع الإفرنج فضلًا باهرًا؛ فإنهن أرق أذهانًا وأسرع فهمًا، والحاصل أن الإنكليز هنا رجالًا ونساءً ليسوا من خيرة بلادهم، وأن كبرهم وعتوهم وجشعهم جعلهم مبغضين عند جميع المالطيين، فما من مالطي تسنح له فرصة لأذى إنكليزي إلا وينتهزها، فأما المتوظفون منهم في خدمة الحكومة فإنما هم راضون عن أصحاب السياسة لا عن أفراد الإنكليز المجاورين لهم.

فصل في موسيقى أهل مالطة وغيرهم

قبل الدخول في هذا الباب الحرج ينبغي أن أستأذن أصحاب أهل الفن في التطفل على هذا النحو، وإن كنت لا أعد من جملتهم غير أني علمت منه ما يمكنني أن أعرف المستقيم منه من غير المستقيم، فأقول؛ قال بعض الفلاسفة: إن فن الموسيقى فضلة من المنطق أخرجها العقل بالصوت لما لم يمكن إخراجها بالقياس، فمن أول المنطق بالاصطلاحي قال معناه إن أركان هذا الفن ذهنية بناء على أن المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسماع والذوق، فيرسم السامع ما يسمعه من الأصوات في مخيلته وذاكرته دون مشاهدته لدلائله، وهكذا يتلقاه التلميذ عن معلمه بالترسم عن ظهر القلب والاتباع مع الملكة التي ترسخ في مخيلته تلك الترجيعات، ولهذا كان المعول عليه في تحصيل هذا الفن ملكة الذوق.

أما الإفرنج فقد جعلوا الآن ترجيع الصوت وإيقاعه داخلًا تحت حس المشاهدة، فدلوا عليه بنقوش ورسوم معلومة كما دلت الحروف على المعاني، فلم يكن تحصيله متوقفًا على ذاكرة وعظيم معاناة كما في السابق، فمن كان منهم عارفًا بخارج النغم ورأى تلك العلامات أمكن له أن يخرج عليها أي صوت كان من دون أن تتقدم له سابقة فيه، وإذا اجتمع منهم عشرون رجلًا وكانت أمامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة، ويرد على هذا التأويل أنه لو كانت الموسيقى فضلة من المنطق لكانت واحدة الاستعمال كما أن المنطق واحد الضوابط، على أن الناس متغايرون فيها تغايرًا شديدًا، فإن ألحان العرب لا تطرب غيرهم، بل هؤلاء أيضًا مختلفون، فإن أهل مصر لا يطربون لألحان أهل الشام، وألحان الإفرنج لا تطرب أحدًا من هؤلاء.

وعلى تأويل المنطق بالمعنى اللغوي وهو المراد هنا، فقد جاء في شرح رسالة ابن زيدون لسلطان المتأدبين ابن نباتة ما نصه:

> النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على إخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس وحن إليه القلب. ا.هـ.

والمراد بالترجيع لا التقطيع أن يكون الصوت ممتدًا ينحى به لا متقطعًا كأصوات الهجاء، فإذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة من المنطق على هذا التأويل لزم أن نقول إن لكل جيل من الناس محاسن في الغناء مقصورة عليهم فقط، فإن لكل لغة محاسن وعبارة لا توجد في غيرها، والواقع بخلاف ذلك فإن لغتي الصين والهند مثلًا تشتملان على محسنات لا توجد في غيرهما إلا أن أنغامهم خالية من ذلك، أما ألحان الإفرنج فلا يطرب لها منا إلا من ألفها، وهي عندهم على أربعة أنواع:

الأول: وهو أحسنها ما يتغنى به في الملاهي مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيعه وخفضه ورفعه وترقيقه وتفخيمه وترجيفه، وفيه تدخل حماسة وتحريض وتذمير.

والثاني: وهو يشبه ما يرتَّل به في الكنائس، ولا يكاد يكون به ترجيف.

والثالث: ما يغنى به في المحزنات والبث، وفي هذا النوع يستعملون غناء رقيقًا أشبه بالنجوى، فمن يسمعه يلحن ما المراد به، وإن يكن جاهلًا باللغة، كما إذا رأيت شخصًا مجهشًا للبكاء فإنك تعلم إجهاشه بالبديهة وإن لم تعرف سببه.

والرابع: ما يتغنى به في المضحكات والمحاورات، وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر، وتطريبه إنما هو من حيث إنهم يصلونه بأشياء كثيرة وحركات مضحكة، فيضحكون فيه ويقهقهون ويبكون ويتثاءبون ويعطسون، ويحاكون به قيق الدجاج وصداح العصافير وغيرها، وفي كل من هذه الأنواع يستعملون المساجلة وهي مطربة جدًّا، وأكثرها في النوع الأخير، ويوفقون عليه ألفاظًا مولدة غريبة، وكما أن لهم غناء مضحكًا كذلك لهم رقص يحمل الثكلى على القهقهة. أما العرب فإنهم يقولون إن

الرصد يشجي، والسيكاه يفرح، والصبا والبيات يحزنان، والحجازي ينعش وينغش ... وهلم جرا، والفرق بين الفريقين من عدة وجوه:

أحدها: إن الإفرنج ليس لهم صوت مطلق للإنشاد من دون تقييد بتلك النقوش، فلو اقترحت على أحدهم مثلًا أن يغني بيتين ارتجالًا كما يفعل عندنا في القصائد والمواليات لما قدر، وهو غريب بالنسبة إلى براعتهم في هذا الفن؛ لأن الإنشاد على هذا النوع طبيعي، وقد كان عندهم من قبل أن تكون النقوش والعلامات، فيا ليت شعري كيف كانوا ينشدون قبل أن نبغ غويدو داريتسو في إيطاليا.

الثاني: إنه إذا اجتمع منهم عشرة مغنين، وأرادوا إخراج موشح أخذ بعضهم في بعض أركانه من مقام، وبعض في البعض الآخر من مقام غيره، فإن كانت الأغنية مثلًا من الرصد غنى واحد جزءًا من هذا المقام بصوت جهير، وآخر جزءًا من النوى بصوت رقيق، وآخر جزءًا من الجواب بصوت عالٍ فيسمعه السامع من عدة مقامات، ويسمى ذلك عندهم هرموني؛ أي إن الأصوات تتألف على الغناء، وفي هذه الطريقة فوائد ومخاسر؛ أما الفوائد فلأن السامع يسمع في وقت واحد موشحًا واحدًا من عدة مقامات بأصوات مختلفة، فهو كمن يسمع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض، وأما المخاسر فلأن السمع لا يتمكن كل التمكن من إدراك جميع مخارج تلك الأصوات المتغايرة، وهذه الطريقة عندي على الآلات أحسن منها على الأصوات.

الثالث: إن غناء الإفرنج هو مثل قراءتهم في أنه لا يخلو عن حماسة وتهييج فضلًا عن التشويق والتطريب والترقيص، فغناء الحماسة والتهييج هو الذي يكون به ذكر القتال، وأخذ الثأر والذب عن الحقيقة، فإذا سمعه الجبان ولا سيما من الآلات العسكرية هانت عليه روحه، أما الغناء العربي: فكله تشويق وغرامي، وأجدر به أن يكون جامعًا لمعنيي الطرب، وهو خفة تصيب الإنسان من فرح أو حزن، فإذا سمع أحد منا صوتًا أو آلة شغف قلبه الغرام فبدت صبابته وحنت نفسه كما يحن الإلف إلى إلفه حتى يصير عنده آخر الفرح ترحًا، ولا غرو إن صعد منه الزفرات وأذرف العبرات، فإن السرور إذا تفاقم أمره وتكامل بدره دب فيه محاق الشجن، واختلط به الحزن حتى يستغرق صاحبه في بحر من الوجد، ويشتغل بنار من الهيام، وعلى ذلك ورد قولهم: طربه وشجاه من الأضداد.

الرابع: إن الإفرنج لا قرار لأصواتهم إلا على الرصد. نعم، إن جميع الأنغام يوجد لها مقامات في آلاتهم، بل توجد أنصافها وأرباعها إلا مقامين منها لا أنصاف

لهما إلا أنهم لا يقرون إلا على المقام الأول، وقد سمعت منهم الرهاوي والبوسليك والأصفهاني، أما غيرها فلم أسمعه قط، بل قد سمعت منهم بعض أغانٍ من أغانينا أوقعوها على آلاتهم، فكانت كلها رصدًا، وقد والله طالما وقفت السمع على أن أسمع منهم أنغامنا فخبت حتى اعترتني الحيرة، فإني من جهة كنت أرى آلاتهم بديعة الصنعة على كثرتها، وأفكر في أن العلوم انتهت إليهم والفنون قصرت عليهم، وإن عندهم في هذا الفن بدائع كثيرة فاتتنا على ما سبق ذكره، ومن جهة أخرى أرى أن براعتهم كلها إنما هي من مقام الرصد، نعم إن هذا المقام هو أول المقامات، وأنه يغني منه في مصر وتونس أكثر مما يغني من غيره إلا أن فضل الصبا والبيات والحجازي لا ينكر أيضًا، ثم أعود فأقول: لا غرو أن يكون قد فاتهم أيضًا بدائع في هذا الفن كما فاتهم في غيره أشياء أخرى، وذلك ككثرة بحور العروض عندنا، وكبعض محسنات الكلام، وكالسجع في الكلام المنثور؛ إذ ليس عندهم سوى المنظوم، وهو في الإنشاء كالصوت المطلق في الغناء، فإن السجع مقدم على النظم، وكعجزهم أيضًا عن لفظ الأحرف الحلقية، وقد سألت مرة أحد أهل الفن منهم فقلت: إن المقامات موجودة عندكم وعندنا على حد سوي، وكذا أنصافها فبقي الكلام على استعمالها، فإنا لو استعملنا مثلًا نصفًا من الأنصاف مع مقامه وأنتم تستعملونه مع مقام آخر بحيث يظهر لنا أنه خروج فمن أين تعلم الحقيقة، فما كان منه إلا أن قال: إن هذا الفن قد وُضع عندهم على أصول هندسية لا يمكن خرمها، فلا يصح أن يستعمل مقام إلا مع مقام آخر، على أني كثيرًا ما سمعت منهم خروجًا فاحشًا على شغفي بألحانهم، وقد شاقني يومًا وصف المادحين إلى سماع قينة بلغ من صيتها أنها غنت في مجلس قيصر الروس، فلما سمعتها طربت لرخامة صوتها وطول نفسها في الغناء، إلا أني سمعت منها خروجًا بحسب ما وصل إليه إدراكي، ولو تيقن أن ألحان الروم التي يرتلون بها اليوم في كنائسهم هي كما كان يتغنى به في أيام الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلًا آخر على قصور ألحان الإفرنج، فإن أنغام الروم مقاربة لأنغامنا.

الخامس: أن أكثر أصحاب الآلات عندهم لا يحسنون إخراج أنصاف النغم وأرباعها ما لم تكن مرسومة لهم إلا صاحب الكمنجة، فأما الناي ففيه خروق شتى غير السبعة لكل اثنين منهما طباقة إذا سد منها منخر جاش منخر، غير أن الصنعة في إحكام سدها واستعمالها تقارب صنعة تغيير نقل الأصابع عندنا، وهذه الأنصاف

والأرباع في النغم مثل الروم والإشمام في النحو، وفي الجملة فإن للإفرنج حركات في هذا الفن خارجة عن ذوقنا، وأخرى لا يمكن محاكاتهم بها، ومما مر تفصيله تعلم أن إنشادهم في الحماسة والفخريات غير معروف عندنا، وأن مطلق الصوت عندنا غير معروف عندهم، ومن الغريب أنه مع كثرة ما عندهم من الآلات والأدوات فقد فاتهم العود على محاسنه والناي من القصب، فإن نايهم هو بمنزلة الزمر عندنا، على أن أكثر العلماء قرر أن أصل الموسيقى مأخوذ عن صوت الريح في القصب، وقال بعض: إنه عن صداح الطير، وغيره إنه عن خرير الماء، وآخرون إنه عن أصوات مطارق طوبال قين، وأول من ضبط أصول هذا الفن يوبال، وذلك في سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد، وكان اختراع الناي في سنة ١٥٠٦ ونسب إلى هيجنيس.

وعلى ذكر مطارق القين فقد ورد في شرح مقامات الحريري في ترجمة الخليل أن أول من استخرج العروض وحصر أشعار العرب به الخليل بن أحمد أبو عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي، وكان سببه أنه مر بالبصرة في سوق القصارين فسمع الكدنيق أي المطرقة بأصوات مختلفة؛ سمع من دار «دق» وسمع من أخرى «دق دق» وسمع من أخرى «دقق دقق» فأعجبه ذلك، فقال: والله لأضعن على هذا المعنى علمًا غامضًا، فوضع العروض على حدود الشعر … إلخ، وأشجى آلة من الآلات الإفرنجية هي «الكنشرتينة» وهي فرع من فروع الأرغن، ونحو من المنفخ يفتح ويطبق، وهي من مخترعات وينسطون، ومن المعلوم أنه كلما رقت طباع الناس ولطفت أخلاقهم كانوا إلى المحاضرة في مضمار الطرب أسبق، ولشذا عبيره أنشق، فإن المولع بغر المعاني، ونكات الكلام لا يسمع الألحان إلا ويتصور معها من الحسن ما يهيم به وجدًا قبل أن يشعر الغبي بمجرد معرفة كونها غناء، ولا سيما إذا كان الإنشاد معربًا والوقت معجبًا.

وقد جاء في شرح لامية العجم للعلامة الصفدي:

> من لم يحركه العود وأوتاره، والربيع وأزهاره، فهو فاسد المزاج بعيد العلاج. وقال أفلاطون: من حَزَن فليسمع الأصوات الطيبة، فإن النفس إذا حزنت خمد نورها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمد. وقال إسحق بن إبراهيم الموصلي: شر الغناء والشعر الوسط؛ لأن الأعلى منها يطرب والدني يضحك ويعجب، والوسط فلا يطرب ولا يضحك. ا.هـ.

ومن الغلط البيِّن أن يقول أحد إني لم أطرب لهذه الألحان؛ لجهلي باللغة، فإن أصل الطرب إنما يكون عن الصوت لا عن الكلام المتغنى به.

أما أهل مالطة فإنهم في الغناء مذبذبون كما في غيره أيضًا، فلا هم كالإفرنج ولا كالعرب، فأهل القرى منهم ليس لهم إلا أغاني قليلة، وإذا غنوا مطوا أصواتهم مطًّا فاحشًا تنفر المسامع منه فمضاهاتهم للإفرنج هي في اقتصارهم على الرصد، وللعرب في أنهم إذا اجتمع منهم طائفة للغناء لم يخرجوا أصواتهم إلا من مقام واحد، ويقوم أحدهم ينشد ويرد عليه الباقي، أما الأعيان منهم فإنهم يتعلمون الألحان الطليانية، وأكثر العميان بمالطة صنعتهم العزف بالآلات، فمتى قدم أحد من سفر أو ولد له ولد أو تزوج أو عمد ولده أو ترقى إلى رتبة أو كسب مكسبًا جزيلًا؛ بادروا إلى تهنئته، ولا يخفى عنهم شيء مما يحدث في بلدهم، ويقال إن إحدى بنات الأعيان فجرت مرة، وكتمت حبلها عن أهلها، ثم غابت أيامًا حتى وضعت ولدها، فلما رجعت إلى بيتها أقبلت زمرة منهم يعزفون أمام الدار، فسألهم أبوها: ما سبب ذلك؟ فأخبروه بوضع ابنته ففطن حينئذ لغيابها، والذي يظهر لي أن الأنغام التي كان يتغنى بها في أيام الخلفاء كانت أشبه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة، واللازمة التي تستعملها المغاربة في غنائهم هي دي دي، كقول أهل مصر والشام يا ليل وكقول الترك أمان، وفي القاموس: ما كان للناس حداء، وضرب أعرابي غلامه وعض أصابعه فمشى وهو يقول دي دي، أراد يا يدي، فسارت الإبل على صوته، فقال له: الزمه وخلع عليه، فهذا أصل الحداء. ا.هـ.

وأسماء الأنغام عند المغاربة مخالفة لأسمائها عندنا، وهم يزعمون أنهم نقلوا هذا الفن عن أهل الأندلس، وأهل تونس أكثر ترسلًا منهم، والظاهر أن الموالي من خصوصيات أهل مصر والشام، وكذلك الناي والقانون، والغالب في من غنى صوتًا وأجاد أن يظن أن لم يبق ذو أذن واعية إلا وسمعه، وإذا لم يجد ألفى لنفسه عذرًا، وذلك بأن يتنحنح أو يسعل فيحيل القصور على شيء طرأ عليه، هذا إذا كان المغني غير متخذ الغناء له صنعة، فأما من درب فيه فقل أن يعرض له خروج؛ لأن الصوت كالآلة كلما زاد استعمالًا زاد جلاء، وكما أن غناء أهل مصر أطرب وأعلى من غناء جميع العرب كذلك كان غناء الطليانيين أعلى من غناء سائر الإفرنج؛ وذلك لكثرة ما في لغتهم من الحركات، فهي مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض، ولكون أصواتهم صادرة عن صدورهم.

أما لغة الإنكليز فلكثرة السواكن فيها لا تطاوع على الغناء الذي فيه مد وترجيع إلا بتحويل الألفاظ عن وجهها، وخرم قواعد النطق بها، وإنما يحسن بها الأغاني المضحكة،

وأصواتهم كلها من أزوارهم، وكأن المغني منهم يغني وقد غص بلقمة، وجميع الإفرنج يقولون إن غناء العرب من خياشيمهم، وعلى فرض تسليم ذلك فما يكون منافيًا للإشجاء والتطريب فإن اللغة الفرنساوية لا يتكلم بها إلا مع الغُنة، وهي مع ذلك أشجى لغات الإفرنج جميعًا، وربما طرب لها من سمعها أول مرة من عمره. وقد رأيت من الإفرنج من كان يطرب للأنغام المصرية، ولكن غب طول مكث بمصر، وكان في أول أمره يأنف منها، ويقول إنها محزنة، ولا يخفى أن للعادة تأثيرًا في جميع الأحوال وخصوصًا في المنطق والألحان، وناهيك أن الأطفال عندنا وعند الإفرنج ترقد على الغناء فتعتاد عليه مذ الصبى، فإذا امتزج بأمزجتها كان سماع غيره ضد المألوف، وأهل مالطة يرقدون أطفالهم على ما هو أشبه بنواح الندابات في بلادنا، ولولا العادة لما عجزت الإفرنج مع حكمتها عن النطق بأحرف الحلق، وهي التي وفت حق نسائهم جزافًا وبخست نساءنا حقهن.

فصل في لغة أهل مالطة

اعلم صانك الله عن الزلل، وسددك إلى صواب القول والعمل، أن اللغة المالطية فرع من دوحة العربية وشيصة من تمرها، وهي يتكلم بها في جزيرتي مالطة وغودش، وسواء في ذلك العامة والخاصة، غير أن هؤلاء يتعلمون أيضًا الطليانية والإنكليزية لاحتياجهم إلى الأولى في المعاملات والتجارات وكتب الشرع وغيرها، ولتنافسهم في الثانية؛ لكونها لغة أرباب الحكم، وذلك لأن اللغة المالطية لم تدون فيها علوم، ولم يشهر فيها كتب، فهي عبارة عن ألفاظ يتداولونها فيما هو من مقتضيات الأحوال الساقطة دون أن تفي بحاجتهم فيما يقصدونه من وصف أو نسيب أو وعظ، فإذا أرادوا ذلك فزعوا إلى الطليانية، وهو دليل على سفالة طبعهم حيث لم يحافظوا من اللغة إلا على المبتذل، وإذا أخذوا من الطليانية ما مست الحاجة إليه ملطوه، وألحقوه بتركيب لغتهم كقولهم مثلًا «ما يرنشيش» أي ما يوافق و«كونشيته» أي عرفته، ففي الأول ياء المضارعة والشين التي يزيدونها بعد النفي كما تزاد أيضًا في اللغة المتداولة الآن في مصر والشام، وهي مختصرة من لفظة شيء، وفي الثانية ضمير المتكلم والغائب، وكقولهم «عندي بياشير» أي سرور، فيجعلون الظرف خبرًا مقدمًا، والنكرة مبتدأ مؤخرًا، فهو جارٍ على قواعد العربية، وقد قلت فيها:

تبًّا لـهـا لـغـة بـغـيـر قـراءة ... وكـتـابـة عـيـن بـلا إنـسـان
تتبلبل الألباب في تركيبها ... ويكل عنها كل حد لسان
أذنـابـهـا ورءوسـهـا عـربـيـة ... فسدت وأوسطها من الطلياني

فإن قيل إن الأذناب والرءوس هنا كناية عن أوائل الألفاظ وأواخرها كأداة المضارعة وأل التعريف ونون الوقاية، وهذه باقية على الأصل فلم وصفتها بالفساد، قلت: إن أداة المضارعة مكسورة عندهم على كل حال، وكذا أداة التعريف، والضمير غير ظاهر، فإنهم يلفظون به كالواو، ويحتمل أيضًا أن يكون «فسدت» دعاء في المعنى، ومع كثرة ما بقي عندهم من مفردات العربية وجملها وتأليفها، ولا سيما في الأمور المتعارفة كما ذكر، فقد ذهب عنهم مرادف الأب، وإنما يقولون «مسار» بالإمالة، وكأنها محرفة عن «موسيو» بالفرنساوية فإن حق التلفظ بها أن يكون «مونسيور»، وكذلك ذهبت عنهم كلمة التحية صباحًا ومساءً، فيقولون: «بون جورنو عليك» ولعل سبب ذلك أن المسلمين لما افتتحوا جزيرتهم كانت التحية بينهم: «السلام عليكم» وكان استعمالها مقصورًا عليهم كما هو في بلادنا، فلم تعرف بين الأهلين، وليس هذا بأعجب من ذهاب تحيات العرب العاربة عن المستعربين، وقولهم الآن: «صباح الخير» الظاهر أنه مولد، ومن الغريب أن بعض أعيان المالطيين يحاكون الإفرنج في أطوارهم وهيئاتهم، حتى إذا نطقوا بلغة أنفسهم زال عنهم ذلك الرواء، وانجلى ذلك الإبهام، وإذا تكلموا خلطوا جملة إيطاليانية بأخرى من لغتهم، لكن هذه هي الغالبة، فإنها لغتهم في الطفولية، وقد أخبرني أحد فضلائهم أنه أقام مدة طويلة في إيطالية، فكان حينئذ يقدر خواطره وأفكاره بلغة أهلها، ثم لما رجع إلى مالطة لم يلبث أن عاد إلى تقديرها بلغته فصدق عليه قول الشاعر:

كل امرئ راجع يومًا لشيمته وإن تخلق أخلاقًا إلى حين

وأغرب منه أن المالطيين يأنفون من تعلم العربية بسبب المثلية بينها وبين لغتهم، وهو عين السبب الذي يوجبه عليهم لكونهم والحالة هذه لا يعانون في تعلمها مشقة وعناء، ومع أن الذين يعاملون منهم أهل العربية كثير، والقاطنين في بلادهم هم أكثر، فما أحد منهم يهمه أن يتعلم العربية قراءة وكتابة، على أنك تجد في جميع بلدان أوروبا أفرادًا يدرسونها حق دراستها.

ثم إن آراء الناس لما كان من شأنها التفاوت والتباين في جلاء الحقائق، ولا سيما إذا كان محل البحث غير منتسق على وتيرة واحدة، وكانت اللغة المالطية تشتمل على ألفاظ من لغات مختلفة اختلفت فيها الأقوال والأحكام، فزعم بعضهم أنها فينيقية؛ لوجود كلمتين فيها منها وهما البير والصيد، كما مر بك في أول هذا الكتاب، وزعم آخرون أنها حبشية؛ لوجود لفظة واحدة فيها وهي المنبر، فإن معناها عندهم الكرسي الذي تلد

عليه المرأة كما هو في الحبشية، وهو وهم على ما تحققته من أهل اللغة المذكورة، وعلى فرض صحة ذلك فلا ينكر أن كثيرًا من الكلام العربي الذي بقي في أهل مالطة مستعمل بطريقة المجاز؛ إما بذكر اللازم وإرادة الملزوم، وإما بتخصيص العام وتعميم الخاص. كقولهم مثلًا: وحلت للوقوع في الأمر الصعب، وأصله؛ الوقوع في الوحل خاصة، ونحو الطلاب للمتكفف، وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب في كل أمر، ونحو معلوب للنحيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالبًا، وفتيت أي قليل، وهو من فت الشيء إذا كسرته وصغرت جرمه، وأشباه ذلك مما لا يحوج إلى برهان، فيكون المنبر على هذا مما عدل به عن وجه استعماله تجوزًا، كما أنه عدل به أيضًا في العربية الفصحى من التعميم إلى الخاص، فإن معنى النبر في اللغة الارتفاع، فالمنبر على هذا آلة الرفع أو محله، ثم خصص عند قوم بمحل الخطبة، وعند غيرهم بكرسي الولادة، وإنما قلت آلة الرفع أو محله، فقد قال الإمام الخفاجي في شرح «درة الغواص» ما نصه:

> هذا تحقيق بديع لما فيه من الفرق بين اسم الآلة التي تتناول باليد وغيرها، فيتعين كسر الأول إلا شذوذًا، فيفتح بعض من الثاني كمرقاة ومنارة؛ لأنه من وجه آلة ومن وجه مكان، وهو فرق لطيف قل من تنبه له أو نبه عليه. ا.هـ.

والحاصل أنه لا شك في كون اللغة المالطية عربية، ولكنني لست أدري أصل هذا الفرع أشامي هو أم مغربي، فإن فيها عبارات من كلتا الجهتين، والغالب عليها الثانية، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى، فيقولون مثلًا: القداس والقديس والتقربن والأسقف، وما أشبه ذلك مما لا يفهمه أهل المغرب، ومن المالطيين من يقر بأن لغتهم غير فينيقية ولا حبشية، ولكن لا يكادون يقرون بأنها فرع العربية مكابرة وعنادًا، ولا يخفى أن كل لغة في العالم لا بد وأن يدخلها بعض ألفاظ أجنبية؛ إما للحاجة إليها، أو لتقارب أهل اللغتين واختلاطهما كالعرب والفرس مثلًا، والرومانيين واليونانيين في الزمن السابق، وهذه اللغة العربية مع سعتها وغزارة موادها وكثرة تصاريفها لم تخلُ عن ألفاظٍ بعضها من الفارسية وبعضها من اليونانية وبعضها من الحبشية والهندية والسريانية والعبرانية، ولم يقل أحد إن العربية فرع عن هذه اللغات، فكيف لعقلاء مالطة أن يقولوا إن لغتهم فينيقية بسبب وجود كلمتين منها فيها، وأقبح من ذلك أنهم يظنون أن فساد لغتهم وانعكاسها عن أصلها العربي ليس من العيب في شيء؛ قياسًا على أن الطليانية انفسخت عن اللاتينية واستقلت بصيغ خاصة بها دون الأصل، وهو مدفوع

بأن العربية لم تنقضِ دولتها كما انقضت اللاتينية حتى تستقل المالطية بقليل موادها، وبأن المالطية لم يؤلف فيها شيء إلى الآن من كتب العلم والأدب ولم يتكلم بها أقوام؛ فالفرق واضح، والحاصل أنهم لا يرون فسادها ولا يشعرون بقبحها ضرورة أنهم لم يطلقوا على محاسن أصلها الذي حلئوا عنه، نعم إن أهل الشام ومصر والحجاز وغيرهم قاصرون عن اللحاق بأهل العربية الفصحى، ولكن ما منهم إلا من يشعر بقصوره عنها، ويدري عظم التفاوت بين الطرفين، وكل يود لو يصل إلى درجة الكمال في معرفتها، وكنت ذات يوم سائرًا مع جماعة منهم فأخذ أحدهم يصف لغتهم، وجعل من محاسنها اجتماع الألفاظ العجمية فيها، كأنه يقول إنها انتفت ما شاق وراق، فمثلها مثل العجوز التي رأت زوجها يزني.

ولشدة تعصب المالطيين على أهل اللغة العربية، وتشنيعهم عليهم؛ إذ كان منتهى السب عندهم أن يقولوا: عربي، كان الإنكليز وسائر الإفرنج أقرب منهم إلى تعلمها غالبًا، ولو كان عند أولئك ركن منها عظيم، وذلك أن المالطي العنيد إذا سمع في العربية مثلًا لفظة خرج وكانت عادته منذ نطق أن يقول حرج، فلا يرى في ذلك كبير فرق، ولا يرى أن نقطة صغيرة تقوم المعنى أو تفسده، بخلاف من يتعلم من أول الأمر أن يقول الكلمة على حقها، وكانوا إذا سمعوني وصاحبي نتكلم قالوا ليس من فرق كبير بين اللغتين إلا عجمة في لغتهم يعنوننا، ولا يخطر لهم ببال أن لغة لم تضمن بطون الأوراق، ولم تضبطها الأحكام النحوية لا تكفي النوع الإنساني، وقد تصدى مرة أحد مؤلفيهم إلى تأليف كتاب نحو فيها، فكتب بعد طالعته ألفا بتو اللغة المالطية، ثم ذكر العين بعد الألف فكان خلفًا؛ لأن جميع اللغات التي تبتدئ بهذا العنوان تكتب فيها الباء بعد الألف، فلما وقفت على ذلك كتبت له:

يا قائلًا ألفا بتو وبعدها ألف عين   إن كان ذا البدء مينًا فكل ذا النحو مين

ويقال إن جميع اللغات القديمة والحديثة تبدأ بالألف إلا الحبشية فإنه فيها الحرف السابع عشر، والظاهر من ترتيب حروف المعجم في العربية والسريانية والعبرانية أنها؛ أي العربية لا ارتباط بينها وبينهما.

وأهل مالطة يلفظون الغين أينما وقعت عينًا، والخاء حاء، والفلاحون منهم يلفظون القاف همزة، ويشمون الألف في نحو قال وباع الضمة، وهو غريب فإن الضم أيضًا عند الهمج من أهل الشام، وينطقون بالضاد دالًا وبالطاء تاء، ولا يلفظون العين إذا كانت

متطرفة أصلًا، فيقولون: تلا أي طلع، وسما أي سمع، ويقال: إنهم كانوا في القديم يلفظون الثاء على حقها.

ومما يضحك منه أن الفلاحين إذا خدموا أهل فالتة غيروا لهجتهم فلفظوا الغين عينًا والخاء حاء توهم أن لغة هؤلاء هي الفصحى، وأهل غودش يميلون الألف في نحو فيها ومنها، والجميع ينطقون بالجيم نطق أهل الشام إلا في قولهم جدي فإنهم يلفظونها كأهل مصر، والظاهر أن حق النطق به أن يكون قريبًا من مخرج الشين كما في لغة أهل الشام.

ففي المزهر في الفائدة الخامسة من النوع التاسع، وهو معرفة الفصيح، ما نصه:

> قال الشيخ بهاء الدين في عروس الأفراح، قالوا: التنافر يكون إما لتباعد الحروف جدًّا أو لتقاربها، فإنها كالطفرة والمشي في القيد نقله الخفاجي في سر الفصاحة عن الخليل بن أحمد، وتعقبه بأن لنا ألفاظًا حروفها متقاربة ولا تنافر فيها كلفظ الشجر والجيش والفم، وقد يوجد البعد ولا تنافر كلفظ العلم والبعد، ثم رأى الخفاجي أنه لا تنافر في البعد وإن أفرط، بل زاد فجعل تباعد الحروف شرطًا للفصاحة. ا.هـ.

وقال الأشموني عند ذكر الإبدال: الشين أبدلت من ثلاثة أحرف؛ الكاف والجيم والسين، فالكاف نحو أكرمتك قالوا أكرمتش وهي كشكشة تميم كما تقدم، والجيم كما في قوله إذ ذاك حبل الوصال مدمش أي مدمج. قال ابن عصفور: ولا يحفظ غيره، وسهل ذلك كون الجيم والشين متفقين في المخرج ا.هـ.

إلا أنه يظهر أيضًا أن الجيم كثيرًا ما تبدل من القاف والكاف مما يؤيد مذهب أهل مصر، فمن إبدالها من القاف قولهم: قف العشب وجف، والمقذاف والمجداف، وقلمه وجلمه، والقشم والجشم، وشق وشج، والقرقس والجرجس، وقص وجز، وتلقف الحوض وتلجف، والشرق والشرج ... ونظائر ذلك كثيرة، ومن إبدالها من الكاف قولهم: كد وجد، وكهد وجهد، وأكن وأجن، وكرع وجرع، وكلبة الزمان وجلبته، والمكالحة والمجالحة، وعكر به وعجر، والركس والرجس ... وما أشبه ذلك. فعلى هذا يكون استعمال أهل مصر له صحيحًا، ويؤيده ما ورد في المزهر في النوع الرابع عشر، قال: المهمل على ضربين؛ ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة، وذلك كجيم تؤلف مع كاف، أو تقديم كاف على جيم، وكعين مع غين، أو حاء مع هاء ا.هـ.

وأيضًا فإنهم يعربون مرة بالجيم وأخرى بالقاف، مثال الأول: الديزج والنيرنج، ومثال الثاني: الرستاق والفرزدق، وربما أبدلت من الحرفين معًا كقولهم: سهجه وسهكه وسحقه، والذي يظهر لي أن ذلك لغة لبعض العرب، غير أن أهل الصعيد والمغاربة وأهل الحجاز ينطقون بالجيم كأهل الشام. ثم إن أهل غودش ينطقون بالأحرف الحلقية على حقها، إلا أنهم يكسرون ما قبل الواو الساكن، فيقولون: مكسور ومفتوح، ويضمون ما قبل الألف، نحو: قاعد ... وهلم جرا، ويقولون منكم وعليكم بكسر الكاف وهي لغة ربيعة وقوم من كلب كما في المزهر في النوع الحادي عشر وتسمى الوكم، ويقولون أيضًا: منهم وبينهم، وهي أيضًا لغة كلب، ومن سفهاء المالطيين من يدعي النظم بلغتهم هذه الفاسدة، ويقال له: عندهم التقبيل، فمن ذلك قولهم:

ين حنينا ساير نسافر ساير نسافر ما ناحدكش معي
مور وهيا بالسلامه الله يظمك في المحبه تيعي

وبقي هنا حل ما أعجم من الألفاظ المنكرة، قوله ين بمعنى أنا، وحنينا بمعنى حبيب منادى محذوف منه حرف النداء، ومن الغريب هنا أن المنادى إذا كان عظيمًا خطيرًا يدخلون عليه أداة النداء من الطليانية فيقولون: أو مولاي، وإذا كان حقيرًا أدخلوا عليه أداة النداء من العربية، فيقولون: يا تفاح يا عنب، وقوله: ساير نسافر، هو مثل قول عامة مصر والشام: رايح أسافر، وما ألطف هنا عبارة الإمام الزمخشري في شرحه لامية العرب؛ إذ قال: وأما المستقبل وإن كان معدومًا في الحال، ولكن هو مارٌّ إلى الوقوع، والنون في نسافر علامة للمفرد المتكلم لا الجمع فإنه نسافرو، وهي لغة أهل المغرب، والشين في ناحدكش لازمة عندهم بعد النفي، والاستفهام كما في العربية الدارجة، ومن أهل الشام من يراها أيضًا لازمة ولو بعد الجملة، فيقولون: ما هو كتيرش فكأن إبرازها ضربة لازب، وميعي أصله معي، ومور فعل أمر من مار أي ذهب، وهو في اللغة كذا، وهيا اسم فعل بمعنى أقبل، وذكره صاحب القاموس مكررًا، وفسره بأنه زجر وهو غريب، ولا يبعد أن يكون أصله حي، ويطربني ما روي عن ذلك الإعرابي الذي سمع رجلًا يدعو آخر بالفارسية يقول له زوذ، فقال لأصحابه: ما يقول؟ قالوا: يقول عجل، فقال: ألا يقول حي هلك وعلي حي هلك تخرج أحجية بديعة، ويظمك أصله إما يزمك أو يضمك، وما قبل الضمير المنصوب مضموم، وهذا من بعض آثار محاسن العربية

القديمة في هذه البلاد، والباء من المحبة مفتوحة فتحة مشبعة، وكذا في كل مكان به علامة التأنيث نحو طيبة وكبيرة، وهي أيضًا من تلك الآثار، وأحسن من الإمالة.

فأما تيعي فقد خبط فيها بصراؤهم خبط عشواء، وذلك لأنهم يدخلون بين المضاف والمضاف إليه لفظة تا، فيقولون مثلًا: الدار تا الطبيب، فمنهم من زعم أنها من الطليانية، فإن المضاف فيها يُفصل عن المضاف إليه بلفظة دي، ومنهم من زعم أنها من السريانية فإنها فيها كذلك، ثم إذا أضافوا تا إلى الضمير برزت معه العين، فيقولون: تاعنا، فلهذا لم يدركوا أصلها، والصحيح أنها محرفة من متاع، فإن أهل المغرب يدخلونها كثيرًا في الإضافة، ويبتدئون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ، وربما قالوا نتاع، بالنون ساكنة أيضًا، فأما العين: فإن المالطيين لا يكادون ينطقون بها إذا وقعت آخر الكلمة، فيقولون تلا وقلا في طلع وقلع، كما ذكرنا آنفًا، ويحذفونها أيضًا إذا اتصل بها ضمير، فيقولون: طليت وقليت جريًا على حذفها بغير اتصال الضمير، وقلب العين ألفًا أو همزة من أساليب العرب كما في تفصى وتفصع، وأقنى وأقنع، والشما والشمع، وتكأكأ وتكعكع، وزقاء الديك وزقاعه، وزأزأ وزعزع أي حرك، وبدأ وبدع، وامرأة خبأة وخبعة؛ أي تختبئ تارة وتبدو أخرى، والخباء والخباع، والخبء والخبع ... ونظائر ذلك كثيرة حتى إنهم قلبوها متوسطة كما في تأرض وتعرض، ودام الحائط ودعمه، فأما تليين الهمزة ألفًا فأشهر من البينة عليه، وممن حرف أيضًا لفظة متاع أهل مصر؛ فقلبوا الميم باء، وهي لغة لبعض العرب كما في درة الغواص، فيقولون با اسمك في ما اسمك، واعلم أن فصل المضاف عن المضاف إليه بأداة أسلوب حسن يفيد التنصيص، وذلك ما إذا كان المضاف منعوتًا بنعت صالح لأن يعود على المضاف إليه أيضًا كما في عذاب الله العظيم، بخلاف ما لو كان بينهما فاصل، والأرجح رجوعه إلى المضاف كما في المغني. ومن نظم المالطيين أيضًا، وهو معنى حسن ولكنه مكسو قبيح اللفظ والسبك:

المحبوب تا قلبي سافر ليلي ونهاري نبكيح
جعلتلو بدموعي البحر وبالتنهيدات تا قلبي الريح

وهو يشبه قول لسان الدين الخطيب:

والبحر قد خفقت عليك ضلوعه والريح تبتلع الزفير وترسل

ومثله قول القاضي الفاضل:

كأن ضلوعي والزفير وأدمعي طلول وريح عاصف وسيول

وقول إبراهيم بن سهل الأشبيلي:

إذا أنست ركبًا تكفل شوقها بنار قراء والدموع بورده

ومثله ما ذكره علي بن ظافر في بدائع البدائه:

شراعها من فؤادي وبحرها من دموعي

وبقي هنا إصلاح فاسد اللفظ، فنقول قد مر شرح تا أنها تكون بين المضاف والمضاف إليه، ونبكيح: الحاء مبدلة من الهاء، وهي لغة للعرب أيضًا، فيقولون المليه والمليح، والهاضوم والحاضوم، والمده والمدح، وتاء وتاح، وشقه النخل وشقحها.

وقوله البحر محركة جارٍ على القياس من أن الاسم الثلاثي الذي أوسطه حرف حلق يجوز الفتح فيه نحو شعْر وشعَر ونهْر ونهَر. قال الإمام الخفاجي في شرح درة الغواص قال ابن جنى في المحتسب: قرأ سهيل بن شعيب السهمي جهرة وزهرة، في كل موضع محركًا، ومذهب أصحابنا في كل حرف ساكن بعد فتح لا يحرك إلا على أنه لغة فيه كالنهر والنهر والشعر والشعر، ومذهب الكوفيين أنه يجوز تحريك الثاني؛ لكونه حرفًا حلقيًّا قياسًا مطردًا كالبحر والبحر، قال: وما أرى الحق إلا معهم. ا.هـ.

ومما أنشدنيه أحدهم بمحضر جماعة:

ينا اشتقت نجى فوق سدتك نجى شبيهه تا عصفور
نطفي المصباح بجوانحي نعطيك بوسه ونرجع نمور

فقلت له: لو قلت نأخذ بوسه لكان أولى؛ لأن من يأخذ هنا خير ممن يعطي، فلم يفهم واستعادنيها قاعدتها عليه، فلم يفطن لها لا هو ولا هم أيضًا؛ لأن المعاريض والمطارحات عندهم في كساد عظيم، والمراد بالسدة عند المالطيين نفس الفراش، وهو في اللغة باب الدار، وعندي أن قدماء المالطيين كانوا همجًا يرقدون على الأبواب، فسموا

كل مرقد سدة، كما أنهم سموا كل مكنسة مسلحة، وهي في الأصل آلة للسلح، وهكذا كانوا يستعملونها، ثم أطلقوها على كل ما ينظف به المكان، ولهذا نظائر كثيرة إلا أن أهل طرابلس الغرب يستعملون السدة أيضًا بمعنى الفراش، وقد ذكرت يومًا لأحد من يتوسم فيه الأدب من أهل مالطة سعة العربية في البديع وخصوصًا التورية، فقال وكذا هي المالطية، وذكر هذه الجملة وهي عندك تينا تا اللحم، فقال: تينا هنا يحتمل أن تكون مضارعًا من تيته يريد من آتيته أو أعطيته.

وتا اللحم يحتمل أن يكون معناها ما يخص اللحم؛ أي ثمنه، وعندك هنا إغراء، وعلى المعنى الثاني يحتمل أن تكون لفظة تينا مفرد التين، وتا اللحم مضاف إليها؛ أي تينة لحم، والمعنى عندك تينة لحم كناية عن الاست، وإغراؤهم بعند ليس على القياس، فإنهم يدخلونها على الأفعال خاصة، ومن سخف تورياتهم أيضًا قولهم: علاه من غير ماء، يوهمون به غلاء السعر.

ومما بقي عندهم من فصيح العربية قولهم دار نادية وحقها ندية، ولكنها أفصح من قول أهل مصر والشام ناطية، وقابلة أي داية، وخطر ومخاطرة أي رهان، وغرفة أي علية، وقولهم في الدعاء: عمروا ونمروا وبدا لي أي عنَّ لي وتطاول ويشرف وصديد وبطحاء، وتجالدوا وهو أفصح من تعاركوا، وزفن أي رقص، وبوقال وهي أفصح من قول أهل الشام شربة أو نعارة، ويماري أي لا يقنع بالحق، ويشرق بالماء ويستقصي، وفرصاد للتوت، وسفود وأهل الشام يقولون سيخ وشيش، وقد ورد في كلام النابغة الذبياني بقوله سفود شرب نسوه عند مفتاد، وتقزز أي تباعد من الأدناس، وعسلوج للقضيب، وجلوز وهو البندق الذي يؤكل … ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة في الغرب، وبهذا يترجح عندي أن أصل المالطيين من المغاربة، ومن ذلك ضمهم آخر الفعل المضارع أحيانًا نحو يحسبك ويبدلك، وقولهم: وعدة وزنة، وهما اسمان من وعد ووزن لا مصدران، ولذلك سلم فاؤهما كما قال الحماسي:

وإذا أتى من وجهة بطريفة لم أطلع مما وراء خبائه

قال الشارح: ومن روى من وجهه، فمعناه من سفره الذي توجه إليه، ويروى لم أطَّلع ماذا وراء خبائه، ومعنى البيت: لم أعرض نفسي عليه متعرفًا ما جاء به من سفره ليشركني في طرفه، ويجعلني أسوة نفسه.

ومما يضحك من كلامهم قولهم: هذا رجل من الكلاب وامرأة من الحمير، يعنون ذكرًا وأنثى؛ لأنه ليس عندهم لفظ مرادف لهما، فيضطرون إلى هذا التعبير القبيح، ويقولون عمل اللحية أي حلق وجهه، وكذلك إذا حلق شعر عانته أيضًا، ويقول أحدهم للآخر عند الإبانة والإفصاح ين نكلمك بالمالطي، فكأنه يقول إن هذا الكلام قد بلغ من البيان بحيث لا يبقى للسامع محل للشك فيه، ويكثرون من جملة: قال لي، يكررونها في أثناء الكلام مرارًا، وإذا قصدوا توكيد خبر كرروا اللفظ خمس مرات فأكثر، فيقولون ما ريتوش قط قط قط قط قط، وما كان ليش فلوس خلاف دا بز بز بز بز بز؛ أي بس، وخاده أي أخذه كله كله كله كله كله، وما يسوى شي شي شي شي شي ... ونحو ذلك.

ومن أوزان كلامهم: فاعلة للمصدر، فيقولون عملته بالواقفة أو بالقاعدة. قال شارح الشافية: اعلم أن مجيء المصدر على وزن فاعلة أقل من مجيئه على وزن مفعول، كالعافية نحو عافاه الله عافية، والعاقبة نحو عقب فلان مكان أبيه عاقبة، وكالباقية كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ أي بقاء، وكالكاذبة كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي كذب. ا.هـ. وأهل الشام يقولون يطلع بالطالع وينزل بالنازل، ومن ذلك وزن فُعل بالضم نحو سدد وصرر، وهو نادر، والأسماء الثلاثة التي أوائلها ضمة يتبعونها ضمة أخرى نحو عمر وشغل، وهو أيضًا جارٍ على القياس، وكذلك التي أوائلها كسرة يتبعونها كسرة أخرى نحو عجل ورجل.

ومن قبيح عادتهم في الكلام، هم وسائر الإفرنج، توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون محاشاة، فيقولون مثلًا: إني أحبك ما دمت أنت حيًّا وهذا الحر يقتلك، وهذا النبات يقطع لك مصارنك؛ أي مصارينك، وهذا التراب يعميك، وإذا مت جاء الطبيب وشرح جسمك عضوًا عضوًا، أو يقول لك العائد لا تله عن دائك فإنه قتال ... وغير ذلك مما يقتضي فيه الإطلاق، ألا ترى ما قاله سيد الفصحاء والبلغاء: «حبك الشيء يعمي ويصم» ولم يقل يعميك ويصمك وإن يكن المعنى عليه.

فأما إمالة صوتهم عند الكلام، وهي التي تسميها الإفرنج أمفازس، فغريبة على من لم يتعود سماعها، فإن لهم مدًّا في الصوت وخفضًا غير مألوف لأهل العربية، حتى إن الإنكليز المولودين بمالطة يجرون هذه الإمالة في لغة أنفسهم انعداء من المالطيين، وقد يعد هذا النوع عند الإفرنج من لوازم الفصاحة، ولكن ليس كالذي يجريه المالطيون فإنهم فيه مشطون، وهو يكاد أن يكون في العربية مفقود الاسم والمسمى أو لعله هو اللهجة، وقد لاحظت في أثناء قراءة المشايخ أنهم كانوا يمدون صوتهم عند التباس المعنى ترويًا فيما يستقبلون، فكأن هذا المد ضرب منه.

ومما يضحك أيضًا أن للمالطيين لازمة في الكلام يكررونها، وهي سميتش محرفة عن سمعت فعلًا ماضيًا، والشين لازمة عندهم بعد الاستفهام كما هي بعد النفي، ولما كان الإنكليز يسمعونها منهم مرارًا جعلوها علمًا على من يجهلون اسمه عند النداء، وعلى الولدان الذين يخدمون على الطعام، ثم إن بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن عند من تصل إليهم من الأجيال، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيأ لهم، وبقوا محافظين على ما عندهم منهم خلفًا بعد خلف، وهؤلاء الإنكليز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات جميعًا وأشهرها، وما تهيأ لهم أن يعمموها عند المالطيين. نعم، إن الخاصة منهم يتعلمونها، ولكن ليسوا عليها بمطبوعين، فإن محاوراتهم بين أهليهم إنما هي بالمالطية لا غير، وليس الطبع كالتطبع ولا الكحل كالتكحل، ويقال إن الذي تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة، مع أن الذي جمع ذلك جرى على طريقة الإفرنج من أنهم يقيدون في كتب اللغة جميع الألفاظ المشتقة كاسم الفاعل والمفعول والآلة والاسم المنسوب ... ونحو ذلك، وإلا لكان هذا القدر باعتبار أنه مواد كافيًا في المحاورات للإفصاح عما في الخاطر، فأما في الكتب فلا، ولا أحسب الكلام المستعمل الآن في بر مصر والشام يزيد على هذا القدر، غير أن أهل الشام، فيما أظن، أكثر مواد من أهل مصر كما أن هؤلاء أحسن منهم نسق عبارة، والله أعلم.